إشراقات

الندم على الأمومة

عشر نساءٍ يروين قصصهنّ

ستيفاني توماس

نوفل

الندم على الأمومة

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2022 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2022
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

مكتبة
t.me/soramnqraa

صورة الغلاف: **Shutterstock** ©
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **بثينة الحكيم**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-060-008-9
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-060-009-6

Original Title:
Mal de Mères
© JC Lattès, 2021

ستيفاني توماس

الندم على الأمومة

عشر نساءٍ يروين قصصهنّ

مكتبة
t.me/soramnqraa

نقلته من الفرنسية كارول حدّاد

نوفل

تمّ تغيير أسماء المشاركات للحفاظ على سرّية هويّاتهنّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تمهيد

«يمكنك أن تندمي على عدم الإنجاب، نعم. لكن من غير المعقول أن تندمي لأنّك أنجبت!».

تلك كانت العبارة الحاسمة التي تفوّهت بها صديقتي شارلوت بحدّة عندما كشفتُ لها عن موضوع كتابي الجديد، «الندم على الأمومة».

أضحكني ردّ فعلها لأنّه ذكّرني بنفسي عندما اكتشفت الموضوع قبل أسابيع قليلة، أثناء قراءة مقالة مستفزّة في صحيفة ليبيراسيون، جذّابة بقدر ما هي مروّعة، «الندم على الأمومة، التابو الأعظم»[1]. أشارت المقالة إلى دراسة عالمة الاجتماع أورنا دوناث «الندم على الأمومة»[2]، التي نُشرت في إسرائيل عام 2015 وكانت الأولى على مستوى العالم حول هذه القضيّة، فأحدثت وقعًا مدوّيًا عند صدورها في بلد الكاتبة ومن بعدها في البلدان التي تُرجمت فيها، ولا سيّما في ألمانيا.

---

1 Noémie Rousseau, « Le regret d'être mère, l'ultime tabou », *Libération*, 10 juillet 2016.

2 "Regretting Motherhood".

أتذكّر بوضوح أنّني كشّرت عندما قرأت هذا العنوان القويّ لدرجة أنّه لازمني كالهاجس لعدّة أسابيع. عمَّ كانت المقالة تتحدّث؟ عن ثلاثٍ وعشرين امرأةً تناولتهنّ تلك الدراسة. كلّهنّ أمّهات، وقد أكّدن أنّهنّ نادماتٌ على الإنجاب، وأنّهنّ لو أعطين الخيار اليوم، لامتنعن. فقد قيّمنَ الجوانب الإيجابية والسلبية من الأمومة، فخلصن إلى أنّ الثانية تفوق الأولى كثيرًا.

أذهلني ذلك. فمع أنّني، خلال عشرين عامًا من اللقاءات والمقابلات، سمعت الكثير، ورأيت المساحات المظلمة والمكبوتة في الروح البشرية، لكن ليس هذا. بصفتي أمًّا، لم أتخيّل يومًا إمكان وجود هذا الشعور. فالأمومة ترتبط غالبًا بمجموعة من المشاعر الإيجابية: سعادة المرأة بإعلانها حملها، دموع الفرح عند الولادة – «أسعد يوم في حياتي» – الفخر برؤية الطفل يكبر... ربط الندم بالأمومة بدا لي أمرًا يناقض الطبيعة. هذا ما يفسّر ردّ فعلي الأوّل، وردّ فعل صديقتي، والكثير ممّن سأتحاور معهم في هذا المشروع.

من بين كلّ المواضيع التي تناولتها في حياتي المهنية، كان هذا هو الموضوع الذي هزّني على نحو خاصّ، ودفعني للتشكيك في علاقتي بالأمومة وبالأسرة. ذلك أنّي لمست فيه تاريخي... تاريخ جدّتي.

لطالما تساءلت في طفولتي عمّا إن كانت جدّتي فون – وكان اسمها إيفون رغم أنّها تفضّل اسم مادلين – تشعر بالندم على إنجابها طفلها، والدي. سمعتها مرّات عديدة تتحدّث بهذا التوجّه. أنا واثقة من أنّها كانت ترغب في إنجابه، لكن هل ندمت على قرارها في نهاية المطاف؟

هل أعاقها وجوده عن تقدّمها مهنيًا واجتماعيًا؟ هل حرمها حرّيتها التي كانت عزيزة جدًا على قلبها؟ هل كانت تهتمّ لأمره حقًا؟ هل ندمت على إنجابها هذا الابن بالتحديد أو على الإنجاب عمومًا؟ سأتحدّث عن

الندم بدلًا منها. لكن ماذا يعني ذلك؟ فمن الغريب أن يندم المرء على ما لديه.

رحلت جدّتي ولم يعد باستطاعتها أن تجيب عن أسئلتي. وكذلك والدي. لكنّني أردت أن أحاول توضيح هذا الحدس.

قرّرت البحث في ذلك التناقض الأمومي من خلال مقابلة نساءٍ ندمن على أنّهنّ أصبحن أمّهات: «التابو الأعظم». لم يكن العثور عليهنّ سهلًا، فهذا شعور لا تتحدّث النساء عنه في العادة. شعورٌ لا يمكن أحدًا أن يبوح به ولا آخرَ أن يستمع إليه! لذلك استعنت بمنتديات النقاش على الإنترنت التي تتميّز بحمايةِ سرّية هويّة الأعضاء. نشرت على أحدها دعوة أطلب فيها نساءً مررن بهذه التجربة، وسرعان ما تلقيت ما لا يقلّ عن ثلاثين ردًّا من سيّداتٍ مختلفاتٍ من حيث الأعمار والمهن وعدد الأطفال.

وفوجئت بكياستهنّ وسعادتهنّ لأنّهنّ سيتمكّنّ أخيرًا من البوح بذلك الضيق الذي يقضّ مضاجعهنّ منذ فترة طويلة نسبيًا. مشروع كتابي هذا أعطاهنّ انطباعًا بأنّ ما يشعرن به موجود بالفعل، كما أضفى نوعًا من الشرعية على الندم على الأمومة. وعشتُ لحظاتٍ ثمينةً وغير مسبوقة معهنّ فيما رحنَ يتكلّمن بصدقٍ ووضوحٍ ومن دون خوف.

بعد أن تكلّمت معهنّ جميعهنّ على الهاتف وتعرّفت إلى بعضهنّ رغم الوضع الصحّي الرّاهن في ظلّ جائحة كوفيد-19، أدركت أنّ كلّ قصّة كانت منقطعة النظير، وأنّ علاقة كلّ واحدة منهنّ مع الشعور بالندم فريدة من نوعها. إلّا أنّني اضطررت إلى اختيار الشهادات الأكثر تأثيرًا التي تعبّر عن هذا الشعور الذي لم يُكشَف عنه بعد في فرنسا. تروي إلزي رغبتها الفاشلة في الإنجاب، وتحكي كولين عن إيثارها الندم على إنجاب طفل بدلًا من الندم على عدم إنجابه، وجيوليا تتحدّث عن بحثها

العبثي عن غريزة الأمومة فيها، بينما قرّرت فيكتوريا أن تطلع ابنتها على ندمها على الأمومة...

لستُ عالمة اجتماع ولا عالمة نفس ولا متخصّصةً في أيّ مجال آخر من العلوم الاجتماعية والإنسانية، لذا ليس هدفي أن أضع نظريات عامّة بشأن موضوع يجب معالجته بتفاصيله الدقيقة. لكن وددت أن أقدّم للنساء اللواتي وثقن بي فرصة الحديث بدون خجل وخوف من أن ينتقدهنّ أحد، وربّما أيضًا أن أعرض على الذين يمسكون هذا الكتاب بين أيديهم أن يكتشفوا جانبًا من الأمومة لطالما تمّ تجاهله وتحمّله بصمت.

اهتمّت أورنا دوناث بدراسة الندم كحقيقة اجتماعية، أي كنتيجة لضغوطٍ يفرضها المجتمع ويعزّز وجودها، أمّا من جهتي فقد سعيت إلى إضفاء الطابع الإنساني على المسألة من خلال الاهتمام بقصص أولئك النساء، مدركةً بحدسي أنّ الاثنين يرتبطان ارتباطًا وثيقًا.

ما هي خلفياتهنّ؟ وما هي تجاربهنّ الأسريّة؟ كيف نشأن؟ هل حلمن بالأطفال عندما كنّ أصغر سنًّا؟ أين يقبع الندم الذي يتحدّثن عنه؟ كيف يعشن يوميًا مع هذا الشعور الذي يتعذّر الحديث عنه؟

مقدّمة

دفعتني أورنا دونات ودراستها إلى تأليف هذا الكتاب. هي الرائدة التي سلّطت الضوء على هذا التناقض الأمومي الذي تشعر به وفرةٌ من النساء في جميع أنحاء العالم والعصور والحضارات: الندم لأنّهنّ أصبحن أمّهات. تدرّس أورنا، عالمة الاجتماع، في جامعة بن غوريون في صحراء النقب، حيث تُجري أبحاثًا عن التوقعات الاجتماعية التي تواجهها النساء. نُشرت دراستها حول الندم على الأمومة عام 2015 وهي ثمرة بحث أجرته بين عامَي 2008 و2013، قابلت خلاله ثلاثًا وعشرين أمًّا إسرائيلية، تراوح أعمارهنّ بين الخامسة والعشرين والخامسة والسبعين، من خلفيات اجتماعية ومهنية مختلفة.

وفقًا لأورنا دونات، أولئك النساء ندمن على إنجاب الأطفال لأنّهنّ لم يكتشفن إلّا بعد الإنجاب أنّ الأمومة لم تناسبهنّ. كما أسرّت لها بعض النساء بأنّهنّ يشعرن بأنّ هذه المسؤولية ثقيلة للغاية بحيث يتعذّر عليهنّ حملها، على الرغم من أنّهنّ يبذلن قصارى جهدهنّ في سبيل هذه الغاية ويحببن أطفالهنّ قدر استطاعتهنّ. قد يظهر هذا الإدراك في أيّ وقت من الأوقات، أثناء الحمل أو بعد ولادة الطفل الأوّل أو الثاني

أو طفل آخر. جميع النساء اللواتي قابلَتْهنّ لم يرغبن بالضرورة في أن يصبحن أمّهات. وقد تعرّض العديد منهنّ لضغوط من شركائهنّ وأسرهنّ للخضوع لهذه التجربة. وترى أورنا دوناث، أنّه ما دام المجتمع يعتبر النساء اللواتي يرفضن الأمومة أنانيات ومجنونات أو «نساءً مزيّفات»، لن يُتّخذ قرار الحمل أو الامتناع عنه في سياق واضح وبرضىً كامل.

وتتابع قائلة إنّنا نعيش في عالم تندرج فيه الأمومة ضمن الترتيب الطبيعي للأمور، إذ يعتبر المجتمع أنّ منح الحياة هو الهدف الوجوديّ لكلّ امرأة. ببساطة، النساء جميعهنّ يحملن الأعضاء البيولوجية ذاتها، لذا من المفترض أن يكون لجميعهنّ الأحلام والاحتياجات والقدرات نفسها. هكذا يمثّل إنجاب الطفل للمجتمع نهاية سعيدة للقصّة. ولهذا السبب ترفع النساء، من خلال شهاداتهنّ، اللثام عن هذا التابو العظيم ويكسرن هذه الأسطورة. ليست الأمومة مملكةً مقدّسة، بل هي علاقة ذاتية تختبرها كلّ امرأة بطريقة مختلفة، وهي علاقة قد تجلب الفرح والحبّ، لكنّها قد تجلب أيضًا الكراهية والغيرة والندم.

بسبب الافتقار إلى الكلمات، وبما أنّ الأمومة وُضعت خارج تجربة الندم، فإنّ ندم المرأة على أنّها باتت أمًّا لا يعالَج إطلاقًا، سواء في النقاش العامّ أو في أعمال العلوم الإنسانية والاجتماعية المرتبطة بالأمومة.

تركّز معظم الأدبيات التي تُعنى بما تقوله الأمّهات على مشاعرهنّ وتجاربهنّ كأمّهات لحديثي الولادة والرضّع والأطفال الصغار، أي خلال الفترة التي تلي الولادة. ويكاد البحث ينعدم تمامًا حول تجربة أمّهات الأطفال الأكبر سنًّا. هذا يشير إلى أنّ تجربة الأمّهات في السنوات التالية لتلك الفترة لم تحظَ سوى بحيزّ محدود من الاهتمام.

في المرّات القليلة التي نوقشت فيها قضيّة النساء اللاتي ندمن على أنّهنّ أصبحن أمّهات على الإنترنت، خلال السّنوات الأخيرة، استُقبلت

أقوالهنّ إمّا بدهشة ساخطة، هي بمثابة إنكار لما شعرت به أولئك النساء وعايشنه، أو أثارت شهاداتهنّ الغضب وجرى تشويهها.

نُشر بحث أورنا دوناث في خمس عشرة دولة تقريبًا، وأثار جدلًا واسعًا حول العالم. لكنّه أثار ردود فعل مختلفة باختلاف البلدان، ما سلّط الضوء على تصوّرات الأمومة وفق كلّ بلدٍ على نحوٍ خاصّ. وبحسب الباحثة الإسرائيلية، يسلّط الشعور بالندم الضوء على مدى نظرة المجتمع إلى الأمومة من منظورٍ إيجابيٍّ واعتبارها غاية الأنوثة القصوى. وتُعدّ حالة ألمانيا مثيرةً للاهتمام لأنّها استتبعت خلافاتٍ ونقاشاتٍ محتدمةً دامت عدّة أشهر. وأعقب نشر الدراسة تدفّقٌ على الشبكات الاجتماعية لشهادات من أمّهات أعربن عن ندمهنّ، ما أدّى إلى تعليقات عنيفة للغاية وإدانات ساحقة من جانب شريحةٍ من السكّان ووسائل الإعلام.

«تركّز الجدل الشديد، الذي أثار غضب ألمانيا، حول الندم بشكل أساسي على مفهومَي «الأمّ المثالية» و«الأمّ السيّئة» وأظهر أنّنا نواجه تعدّدًا في المشاعر والعواطف التي ينبغي استكشافها، بما فيها الندم[1]».

بالنسبة إلى الأكاديمية باربرا فينكن، التي حلّلت أسطورة الأمّ الألمانية في عام 2001، فإنّ دراسة أورنا دوناث تطال ألمانيا بشكلٍ رئيسيّ لأنّها تزعزع «متعة إنجاب الأطفال»، بل تثير التساؤل حولها، في مجتمع قائم منذ فترة طويلة على ما عُرف بأحرف الكاف الثلاثة (Ks) (كيندر، كوش، كيرش) – والتي تُترجم إلى العربية بـ«الأطفال والمطبخ والكنيسة» – وتذكّر بتمثيل قيم الأسرة الألمانية التقليدية تحت الرايخ الثالث. بعد مرور ثمانين عامًا، ما زال المجتمع الألماني يتوقّع تكريسًا تامًّا من قبل الأمّهات، وهنّ أيضًا قد وضعن سقفًا مرتفعًا لوظيفتهنّ.

---

[1] Orna Donath, *Le Regret d'être mère*, Odile Jacob, 2019.

استحوذت الصحف والإذاعـة والتلفزيونات الألمانية على هذا الجدل لأكثر من عام، متسائلة عن الانعكاسات المجتمعية التي يولّدها الندم على الأمومة، منشغلةً بالتفكير في الدراسة التي نُشرت باللغة الإنجليزية في مجلة إسرائيلية وكيف أثارت مثل هذا الجدل في ألمانيا، أكثر ممّا فعلته في بقيّة البلدان الخمسة عشر التي نُشرت فيها.

وتبعته كتب أخرى عالجت هذا الموضوع، مثل الكتاب الذائع الصيت «كذبة سعادة الأمومة» بقلم سارة فيشر[2].

تعبّر ردود الفعل العاطفية على الجدل الذي أثاره هاشتاغ #الندم على الأمومة عن مستوى الإحباط والحزن وخيبة الأمل التي تشعر بها العديد من الأمّهات الألمانيات بسبب الضغط السياسي المفرط وأسطورة «الأمّ الصالحة». النساء اللواتي تجرّأن على التحدّث عن ندمهنّ لأنّهنّ بتن أمّهات عانَين الازدراء العامّ وسلّطن الضوء على رؤية متزمّتة عن الأمومة في الجهة الأخرى من نهر الراين.

مع ذلك، فإنّ النساء اللواتي قابلتهنّ أورنا دوناث في دراستها أصررن مرارًا وتكرارًا على أنّ ندمهنّ لا يتعلق بأطفالهنّ، بل بمؤسّسة «الأمومة» نفسها، التي يرَين أنّها تقيّد وقتهنّ وحرّيتهنّ واستقلاليتهنّ.

وقد لُقّبت أولئك النساء على مواقع التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام الألمانية بـ«رابنموتا» (Rabenmutter) وتعني: «الأمّ الغراب التي تفتقر إلى الشعور بالحبّ، القاسية القلب، التي تهمل أطفالها». هذا التعريف شائع الاستخدام ويُستعمل للإشارة إلى الأمّهات العاملات. ويُعتبرن أمّهات هاجرات، يفضّلن أن يعهدن بأطفالهنّ إلى الغرباء أو المربّيات أو جليسات الأطفال. إنّ عدم وجود ترتيباتٍ لرعاية الأطفال

---

2 ظهر في ألمانيا في دار النشر Ludwig، 2016.

الصغار يمنع المرأة من العمل، إذ لا مدارس للأطفال الصغار جدًّا في ألمانيا، ودور الحضانة باهظة الثمن في الجهة الأخرى من نهر الرّاين.

في ألمانيا، 24 في المئة فقط من الأمّهات عملن بدوام كامل في عام 2016، بينما عملت 46 في المئة منهنّ بدوام جزئي. أمّا في فرنسا، فتعمل 28 في المئة منهنّ بدوام جزئي. وترتفع هذه النسبة إلى 30 في المئة عندما يكون لديهنّ طفلان اثنان. وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنّ أكثر من ثلث النساء الألمانيات المتعلّمات في الثلاثينيات من العمر اخترن عدم الإنجاب.

ويحكم المجتمع الألماني بقسوة كبيرة على النساء اللواتي يمكنهنّ تخيّل حياتهنّ بدون أطفال، ويرى أنّه كان من الأفضل لو لم يولدن. من الصعب تقبّل فكرة أنّ بعض النساء لا ينجذبن إلى الأمومة أو لا يعتبرنها مناسبةً لهنّ. ولهذا تدحض فكرة الندم على الأمومة الافتراض بأنّ السعادة المرتبطة بالأمومة يجب أن تكون تلقائيةً، بحيث تقضي على جميع الاهتمامات أو الرغبات الأخرى.

ترى مؤرّخة الأمومة باربرا فينكن أنّ دراسة عالمة الاجتماع الإسرائيلية قد أصابت نقطة حسّاسة في ألمانيا لأنّها تزيل هالة القدسية عن أسطورة الأمومة، وهي سعادةٌ تضحّي من أجلها الكثيرات.

لطالما كانت ألمانيا رائدةً في مجال المساعدة الاجتماعية. في نهاية القرن التاسع عشر، شهدنا في أوروبا ولادة المفاهيم التي كان من شأنها أن تلهم دول الرفاهية في ما بعد. في تلك الحقبة كانت أوروبا في مرحلة الصناعة، وأُتيحت الوظائف للنساء. وبدأت المرأة تشغل مناصبَ في الإدارة والتجارة التي كانت أقلّ صعوبةً من العمل على خطّ التجميع، وأكثر جاذبية. اكتشفت المرأة العمل المأجور وأمَلت الاحتفاظ بوظيفتها حتى بعد الزواج والولادة الأولى، فالعادات والأعراف تتطوّر.

فتحت ألمانيا البسماركية الطريق عبر إقرار إجازة الأمومة التي أُدخلت في عام 1878، فضلًا عن التأمين والمخصّصات الماليّة في عام 1883. هذا التشريع، الذي قبلت به النساء الألمانيات، كان بمثابة نموذج للدول الأوروبية الأخرى. في عام 2013، اقتُرح بدل لرعاية الطفل (Betreuungsgeld)، وكان مثيرًا للجدل، لكن سرعان ما أعلنت المحكمة الدستورية الفدرالية بطلانه في أغسطس من عام 2015. منح هذا البدل الوالدَين ما بين 100 و150 يورو شهريًا لتحفيزهما على البقاء في المنزل ورعاية طفل يراوح عمره بين 15 و36 شهرًا. أُطلق على هذا البدل اسم (Herdprämie) (ويمكن ترجمته حرفيًا بـ«علاوة الموقد» أو «علاوة جماعيّة أحاديّة الدخل»)، وتعرّض لانتقادات شديدة. كان البدل في نظر من انتقدوا هذا المشروع المُقترح، تحويلًا للأموال المخصّصة لإنشاء مرافق رعاية الأطفال وتثبيطًا لعزيمة الأمّهات الراغبات في العودة إلى العمل.

في فرنسا، يُعدّ وضع الطفل الصغير في رعاية طرف ثالث تقليدًا منذ القرن الثامن عشر. في ذلك الوقت، اعتُبر الزوج أهمّ من المولود الجديد. وكانت رسالة المجتمع بكامله: «لا ترضعي طفلك وإلّا خانك زوجك». في عام 1769، أُنشئ «مكتب عامّ للمربّيات والمرشّحات لمدينة باريس»، ثمّ في عام 1781، جمعت «مدوّنة التمريض» جميع القوانين ذات الصلة بالمهنة. في البداية، اقتصر استخدام المربّيات على الطبقة الأرستقراطية. ثمّ أصبحت الظاهرة جماهيرية، وطالت جميع الفئات الاجتماعية قاطبةً. بهذه الطريقة تمكّنت النساء من مواصلة العمل، على عكس ما كان يجري في إيطاليا وألمانيا وإسبانيا واليونان والبرتغال، حيث حكم المجتمع بقسوةٍ على اللواتي لا يُردن التوقف عن العمل لرعاية أطفالهنّ. وجاءت العواقب منطقية: فعدم الاضطرار إلى

الاختيار بين إنجاب الأطفال والسعي إلى بناء حياةٍ مهنيةٍ، أسهم بإنجاب المزيد من الأطفال لدى الفرنسيّات.

تحتلّ فرنسا المتروبوليتانية اليوم المرتبة الأولى في معدّلات الخصوبة في أوروبا مع 1.86 طفل لكلّ امرأة في منطقة البرّ الرئيسي لفرنسا في عام 2019، إلّا أنّ انخفاضًا طفيفًا سُجِّل في معدّل المواليد عام 2020 بسبب الوضع الصحّي، ليبلغ 1.84 وفقًا لأحدث أرقام المعهد الوطني للدراسات والإحصاءات الاقتصادية (INSEE). وكانت الدّولة الفرنسيّة قد خصّصت في عام 2015 ما يعادل 3.7 في المئة من الناتج المحلي الإجمالي لسياسات الأسرة، مقارنةً بمتوسّطٍ بلغ 2.8 في المئة في الاتّحاد الأوروبي[3].

سمحت الاحتمالات المختلفة لرعاية الأطفال الصّغار – دور الحضانة، المربّيات – للأمّهات الفرنسيات بالعودة إلى وظائفهنّ بعد إجازة الأمومة، التي يمكن أن تستمرّ من 16 أسبوعًا إلى 46 أسبوعًا اعتمادًا على نوع الحمل، سواءٌ بطفل واحد أو أكثر. من هذا المنطلق، تتصوّر الفرنسيات وصول الطفل براحةٍ أكثر. وكان هذا أحد أسباب عدم إحداث كتاب أورنا دوناث، الذي نُشر في عام 2019، ضجّة كبيرة في فرنسا، وكان ذلك بعد أربع سنوات من الإصدار الأصلي، وبعد صدور الترجمات الأجنبية الأخرى بفترة طويلة. فضلًا عن هذا، أشارت المؤلفة إلى أنّه في عام 2015، عندما نُشرت الدراسة في إسرائيل، كان الرئيس فرانسوا هولاند قد شرّع زواج المثليين وتركّز النقاش في حينها أكثر على الأمومة المدعومة مثل تقنيّات التلقيح بالمساعدة الطبّية أو تأجير

[3] https://www.ccomptes.fr/sites/default/files/2017-09/20170920-rapport-securite-sociale-2017_1.pdf?lipi=urn%3Ali%3Apage%3Ad_flagship3_pulse_read%3BC5qHwVdbSlCTTfo5W9GWig%3D%3D

الرحم، أكثر من ندم الأمّهات على الإنجاب. وكانت هناك فجوة بين موضوع الكتاب والنقاش الذي نشط وقسم المجتمع في ذلك الوقت.

مع ذلك، لفت هذا الموضوع انتباه عددٍ قليلٍ من وسائل الإعلام، لكنّه لم يثر الجدل نفسه الذي أثاره في ألمانيا، والذي كان سيسمح للمرأة الفرنسية بالتعبير عن ندمها على أمومتها. هذا ما دفعني إلى تأليف هذا الكتاب، إذ أردت أن أنصف مسألةً لم تثر الاهتمام الذي تستحقه بما يتناسب مع موضوعها الأساسيّ: لماذا ننجب الأطفال؟

سيكون لكلّ امرأةٍ إجابتُها الخاصّةُ التي ستتأثر بشدّةٍ بالفترة التي طُرح فيها السؤال عليها. فقد جعل السياق الاجتماعي والسياسي في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي جدّتي أمًّا فريدةً من نوعها، لها توقّعاتٌ ورغباتٌ مختلفةٌ تمامًا عن توقعاتي ورغباتي.

.1

إيفون،
المرأة والأمومة في فرنسا

عندما كانت جدّتي فون في الثلاثين من عمرها، كان لها وجهٌ ناعمٌ جدًّا وأسنانٌ كبيرة، وعينان شديدتا الزرقة وزاهيتا اللون، وشعرٌ ناعمٌ قصيرٌ مجعّدٌ بعض الشيء كانت تصفّفه بلفائف الشعر. وعلى الرغم من راتبها الضئيل وملابسها المرتّقة، كانت دائمًا أنيقة للغاية.

وقد أولت الجدّة فون أهمية متساوية بين نتائج ابنها الأكاديمية وحسن مظهره – إذ كانت قادرة على إعادته إلى الحلّاق في اليوم نفسه على أساس أنّ شعره لم يكن «مجزوزًا» بدرجة كافية – وأبدت اهتمامًا ضئيلًا بحالته النفسية. فتعلّم والدي الكتابة والإملاء معها، مرفقَين «بضربات خفيفة على رأسه». أمّا الاهتمام، والألعاب، والأسرار، والفخر الذي يُعبَّر عنه خلال حفل توزيع الجوائز في الكليّة والمدرسة الثانوية، فكانت من امتياز زوجها ريمون، الذي يكبرها بتسع سنوات، وقد وفّر لابنه الرعاية والحبّ والحماية والإخلاص.

أتذكّر ذات يوم أنّ الجدّة فون – التي، على عكس دورها كأمّ – كانت جدّة رائعة تكنّ حبًّا عارمًا لحفيداتها، ولو كانت لا تتردّد في ضربنا بخرق المطبخ عندما كنّا نقترب كثيرًا منها أو من موقدها خلال

اللعب. قالت لي: «إنجاب الأطفال أمر صعب جدًّا. ويتضمّن تضحيات كثيرة. أعطيت كلّ شيء لوالدك». لماذا أخبرتني بذلك؟ وماذا أعطته؟ فرص قضاء العطلة على شاطئ البحر وإمكانية التخصّص بالهندسة؟ لكن بأيّ ثمن؟ فلطالما سعى والدي ليكون الأفضل حتى تفخر به وتخبره بذلك... عبثًا.

هل كانت ستسعد أكثر من دونه؟ ماذا كانت ستفعل في حياتها؟ تقوم بجولة حول العالم ربّما، وتزور سور الصين العظيم، والميدان الأحمر، وهي أحلام مرتبطة بتعلّقها بالشيوعية. هل كانت ستنال وظيفة أفضل من إدارة أحد الأقسام في شركة التأمين التي وظّفتها؟ هل كانت اشترت «الملابس الجميلة» و«المجوهرات» كما كانت تقول مرارًا؟ مع تقدّمها في العمر، أصبحت هذه التعابير لازمة تردّدها باستمرار.

وُلدت جدّتي في عام 1913 في باريس من أمّ بريتانية، عاملة تنظيف، وأب من البيري، نجّار يصنع الأثاث الخشبي، يعمل في مشغل في فوبور سان أنطوان بعدما نال تدريبه في مدرسة بول. تعارفا في حفلة راقصة في عام 1910. لكنّهما لم يتزوّجا ولم يرغب ليون في أن يعترف بطفلته. عاش الوالدان الشابّان في غرفة خادمة في منطقة أليغر في الدائرة الثانية عشرة، حتى جُنّد ليون في الجيش وخاض الحرب في أغسطس من عام 1914. لم أعرف أبدًا سبب عدم زواجهما. ولطالما ردّدت جدّتي بفخر كبير أنّ والديها كانا «طليعيّين». وهي طريقة لتبرئة والدها على الرغم من الوصمة التي حملتها لسنين.

ففي ذلك الوقت كانت الأمّ العزباء موضع استياء المجتمع. في نهاية القرن السادس عشر، عزّز مجمع ترنت قدسية الزواج وأصبح الإنجاب خارجه كفرًا وعارًا. وفي عام 1556 صدر مرسوم ملكي يُلزم جميع النساء بإعلان حملهنّ للسلطات، وإلّا عوقبن بالإعدام إذا تُوفي

الطفل بدون معمودية. وكانت النيّة المُعترف بها هي منع أيّ إجهاض أو قتل الأطفال وضمان ألّا يُحكم على الرضيع بالبقاء خارج الجنة إلى الأبد. لكنّ الأمر كان في الغالب متعلّقًا بتحكّم السلطات بالإنجاب.

بعد الولادة، يمكن لأولئك النساء البقاء في «الملاجئ» إذا ولَدْن في المدينة. ووفّرت تلك المؤسّسات التي أدارتها الراهبات سقفًا لأولئك الفتيات المسكينات اللواتي طردتهنّ أسرهنّ أو تخلّى عنهنّ أسيادهنّ. وإذا عجزت الأم عن توفير احتياجات طفلها، عُهد به إلى دار الأيتام، وفي كثير من الأحيان، سُمح للأمّهات بالبقاء في «الملجأ» لفترة من الوقت لإرضاع أطفال الأخريات.

خلال القرن الثامن عشر، أصبح المجتمع أكثر تعقيدًا وتراجعت سلطة الكنيسة، وازداد الإشراف على الفتيات والسيطرة على الأخلاق صعوبة. وصار يُعهَد بالأطفال الذين أُنجبوا خارج إطار الزواج على نحوٍ متزايد إلى دور الأيتام. كان الرضيع يوضع في فرجة مربّعة صغيرة دوّارة في جدران المؤسّسات الدينية التي ترحّب بانتظام بالمواليد الجدد الذين يتمّ التخلّي عنهم بعيدًا عن الأنظار، وكانت الأمّهات يعرفن أنّ الراهبات تسلّمن أطفالهنّ على الفور وسيعتنين بهم، وأنّهم بأمان. لطالما أخذت الأمّ تلك المسؤولية على عاتقها. فدائمًا الأمّ هي من تلد «اللقيط».

وتعود عبارات «fille-mère» (الأمّ العزباء) و«enfant naturel» (الطفل الذي يولَد لأبوَين غير متزوّجَين) إلى القرن الثامن عشر. إنّ منح تسمية ومكانة في المجتمع لأولئك النساء اللواتي ليس لهنّ أزواج يعني الاعتراف ضمنيًا بأنّهنّ قادرات على تحمّل مسؤولية أطفالهنّ وحدهنّ، وأنّ ثنائية الأمّ والطفل يمكن أن تتجاهل الأب وتستغني عنه[1]. بعد

---

[1] Yvonne Knibiehler, *Histoire des mères et de la maternité en Occident*, Que sais-je ?, PUF, 2017.

قرن من الزمن، وبدعم من السلطة الأخلاقية للكنيسة والقانون المدني الصادر في عام 1804، صدر قانون يهدف إلى حماية الرجال ومنع أيّ بحث عن الأب والحفاظ على ميراث الأبناء الشرعيين.

أمّا المجتمع فقد احتاج إلى وقت أطول للقبول بإمكانية استغناء المرأة عن الرجل في حياتها. فقد جلبت أنطوانيت، والدة جدّتي، العار لعائلتها. لكن في عام 1912، سمح القانون أخيرًا للأمّهات غير المتزوّجات بإجبار الأب على الاعتراف بأبوّته. وتحوّلت الأم العازبة من «امرأة آثمة» إلى «أمّ شجاعة». مع ذلك، في عام 1913، كانت الأم العازبة لا تزال تُعدّ فضيحة.

بدءًا من جدّيها اللذين كانا يناديانها بهذا الاسم عندما كانت ترجع إلى بريتاني، نعت المحيط وأفراد العائلة جدّتي بنعت يسيء إلى السمعة هو «اللقيطة»، وهو جرح لم يلتئم أبدًا عند الجدّة فون.

لم يعترف ليون بإيفون الصغيرة حتى عام 1920، عندما اعترف أيضًا بابنته الثانية، بوليت، التي وُلِدَت بعد تسعة أشهر من عودته من الحرب. ولطالما شعرت جدّتي بقليل من الغيرة من أختها الصغرى، التي لم تختبر يومًا العار الذي اختبرته هي. أخبرتني قصّتها مرارًا وتكرارًا وحدّثتني عن آلامها والإهانات التي تعرّضت لها عندما كانت طفلة. واستمعت في كلّ مرة إلى قصّتها بذهنٍ مشتّتٍ أو بانزعاج، وفقًا لمزاجي، واعتبرت أنّها تكرّر القصّة ذاتها بدون فائدة، لأنّ... والدها اعترف بها في النهاية.

لم تتوانَ إيفون عن الانتقام بتحقيق نجاحاتٍ أفضلَ من أولئك الذين بقوا في القرية في بريتاني وبيري. على الرغم من أنّها لم تحصل إلّا على شهادة المرحلة الابتدائية – وقد أسفت طوال حياتها لعدم قدرتها على الاستمرار حتى البكالوريا – إلّا أنّها تسلّقت سلّم الشركة التي عملت

فيها. بدأت حياتها المهنية عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. وحصلت على أوّل راتبٍ حقيقيٍّ لها كموظفة في شركة تأمين عندما كانت في الثامنة عشرة، حيث بقيت حتى تقاعدها. واكتسبت بفضل العمل الجادّ والجدّية ومهارتها في الحساب، مسؤوليات مشرّفة. وحملت أحيانًا حقائب مليئة بالأوراق النقدية مقيّدة بمعصميها بالأصفاد، فيما كان يرافقها حرّاس شخصيون. ومشت بفخر مرفوعة الرأس تنظر نظرةً مباشرةً إلى الأمام، مرتديةً معطفًا أسودَ طويلًا من صوف الأستراخان، في جادّة غران بولفار في باريس.

شكّلت الحرب العظمى بداية «تأميم» أرحام النساء لخدمة الوطن. في بداية عشرينيات القرن الماضي في فرنسا، أصدرت غرفة «الأفق الأزرق» (bleu horizon) قوانين، وصفتها النسويات بالخبيثة، تحظر نشر جميع المعلومات المتعلّقة بمنع الحمل. هدف النوّاب إلى منع أيّ شكل من أشكال المعلومات الجنسية، إذ أراد هؤلاء إسكات الحركات النسائية والمالتوسيين الجدد الذين دافعوا عن تحديد النسل بدون تقييد النشاط الجنسي. إلّا أنّ هذا القانون لم يخفض عدد عمليات الإجهاض على الإطلاق.

في ظلّ نظام فيشي، احتلّ الرحم مكانة بارزة في الخطاب السياسي. وفرض بيتان، ذلك الرجل العجوز الذي لم يُرزق أطفالًا، على النساء الإنجاب في خضمّ عالم في حالة حرب. في تلك الحقبة، عملت النساء مكان الرجال، وقدن الجرّارات، وصنعن الأسلحة في المصانع، واعتنين بالجرحى على الجبهة... لكنّ دورهنّ الوحيد المُعترف به، الذي لن يتولّاه الرجال عندما يعودون من الجبهة، كان الإنجاب.

في خطاب في 20 يونيو 1940، اتّهم بيتان النساء مباشرةً بالخفّة وبأنّهنّ لم يتمكّن من استبدال الذين قضوا في الحرب العالمية الأولى.

«عـددٌ قليلٌ جـدًّا من الأطفال، ومن الأسلحة، ومن الحلفاء. هذه هي أسباب هزيمتنا. فقد طغت روح المتعة على روح التضحية». وألقى اللوم على رغبة المرأة في الاستقلال الجنسي في فترة ما بين الحربَين، مستبعدًا دور الرجل في انخفاض معدّل الـولادات. ففرض أمرًا زجريًا بالإنجاب، وأزال أيّ احتمال لطموح آخر. بثّت الإذاعة شعارات أخلاقية، وفي الشوارع قرأ الناس الملصقات التي تثير الشعور بالذنب: «المرأة العابثة التي لا أولاد لها، لا مكان لها في المدينة». واعتُبرت وسائل منع الحمل جريمةً ضدّ الدولة.

في كلّ مكان في أوروبا، أُعيدت المرأة إلى وظيفتها الإنجابية. وفي مايو 1941، خاطبهنّ المارشال بيتان مجدّدًا:

«يا أمّهات بلاد فرنسا، مهمّتكنّ هي الأصعب، لكنّها أيضًا الأجمل». وفي غضون ذلك، أصبح عيد الأمّ، الذي ترسّخت مكانته بصعوبة في عشرينيات القرن الماضي، إلزاميًا، ويُحتفى به في أوّل يوم أحد من شهر مايو.

التقت إيفون بزوجها في حفلة كروزوا الشعبية الراقصة وتزوّجا في الثاني من سبتمبر 1939، عشيّة إعلان الحرب. ارتدت جدّتي فستانًا بلون زهرة الفوشية، واعتمرت قبّعةً سوداءَ صغيرةً بحجاب شفّاف.

لم ترغب جدّتي أبـدًا في أن تتصرّف كالأخريات، بل فضّلت أن تبرز، وغالبًا ما اعتمدت معاكسة التيار. وبالغت في ذلك حتى أصبح الأمر مؤلمًا. لذلك، في بداية الحرب، لم تهتمّ إيفون إطلاقًا بأوامر بيتان الخاصّة بالأمومة. وتظاهرت في عام 1936 ورفعت قبضتها للحصول على إجازة مدفوعة الأجر. وفضّلت، وهي في السادسة والعشرين من عمرها، التركيز على حياتها المهنية، فيما اختبأ زوجها وشقيقه ماكسيم عند والدَيهما في منطقة كروز هربًا من خدمة السخرة الألمانية.

في تلك الأحوال عجزت جدّتي عن الإنجاب. فغياب ريمون لم يتح لها الالتزام بالإنجاب الذي طالب به بيتان...! لذا، أثناء انتظارها عودة زوجها، عملت إيفون ولم تهتمّ بشعار الدولة الجديد: «العمل، والأسرة، والوطن». وعلى غرار الفرنسيات الأخريات، أولت اهتمامها للحصول على المأكل والملبس.

بعد بضعة أشهرٍ من الاختباء في القرية، قرّر ريمون العودة إلى باريس واستئناف عمله في خطّ الإنتاج في شركة رينو.

وُلد أبي في يناير من عام 1943. وجعلت جدّتي من هذه الولادة عملية مقاومة: سيولد ابنها حرًّا. فولدته في إقليم أندر، قبل أسابيع قليلة من إلغاء منطقة ترسيم الحدود. بعد أقلّ من ثلاثة أسابيع من الولادة، تركت إيفون ابنها مع والدَيها، وعادت إلى العمل ولم تسترجعه حتى عام 1948 ليلتحق بالمدرسة في الصفّ الأوّل، بعد انتهاء الحرب بثلاث سنوات. وحرصت على عدم إرضاعه. هي لن تنزل إلى هذا المستوى... «فالإرضاع أمر مبتذل ومقيّد للغاية. ثمّ إنّه يشوّه النهدَين». لا، سيحصل موريس على بقرته، وهي بقرة المزارع المحلّي، أو على الحليب المجفّف، ذاك الذي أحدث ثورة في حياة الأمّهات. ومنذ ذلك الحين، استطاع الآباء أيضًا إطعام أولادهم بالقارورة. وأصبح لدى المرأة العاملة حلّ. اختُرع حليب غيغوز في عام 1908، وغزا الصيدليات منذ عام 1927. كانت جدّتي تعود من وقت إلى آخر لتقبيل ابنها قبل مغادرتها إلى باريس وهي تحمل سلّة مليئة بالخضار من البستان، والبيض ودجاجة سمينة منتوفة الريش.

عندما كانت إيفون تذكر هذا التخلّي المؤقت عن ابنها، الذي عاتبها عليه هذا الأخير عندما بلغ، كانت تقول: «كنّا في حرب. على الأقلّ كان يتغذّى ويستطيع أن يتنشّق هواء الريف النقيّ».

أدّت جدّتي واجبها كمواطنة وزوجة. وأنجبت طفلًا للوطن ولريمون. لم تولِ وقتًا للندم، وقرّرت المضيّ قدمًا، واستعادة السيطرة على حياتها من جديد. خاطت قمصانها من قماش مظلّات الحلفاء التي اشترتها في السوق السوداء، ورتقت كلّ شيء، وادّخرت المال لتترك إرثًا لموريس. هنا تكمن التضحية. التضحية من أجل ابنها. الابن المقدّس! فإلى الأمام من أجل اعتلاء السلّم الاجتماعي.

وشعرت بفخر كبير لأنّها تستطيع أن تساعد زوجها. هي من ذوي «الياقات البيضاء» وهو العامل. وقد لمّحت له باحتمال الخروج من دورة العمل المرتكزة على الثلاث ثمانيات المرهقة. وساعدته كلّ مساء، وجعلته يراجع الدروس، وشجّعته على تسلّق سلّم شركة رينو. وبتوالي السنين والمسابقات الداخلية، حصل على وظائف أكثر راحة بأجر أفضل. في أيّامنا هذه، يمكن القول إنّ جدّتي كانت امرأة حرّة فعلت ما تريده وحققت أحلامها ولم تأبه بالضغوط الاجتماعية.

لا يمكن إنكار أنّ وضع الطفل تغيّر كثيرًا داخل الأسرة والمجتمع. فهو الآن يتبوّأ المركز الرئيس في بنية الأسرة. حتى قبل ولادة الطفل، يجري تشجيع الوالدَين على تكوين علاقة معه، ولا سيّما من خلال لمس بطن الأمّ أثناء الحمل. كما يمكن التحدّث إليه، والأفضل باللغات الأجنبية، وإسماعه الموسيقى...

عندما حملتُ بليلى، وجدت جدّتي من المدهش للغاية أن تتواصل مع حفيدتها من خلال وضع يديها على بطني. وراقها ذلك. اكتسب طبّ الأطفال النفسي طابعًا ديمقراطيًا، وتضاعف عدد المدارس ذات الأساليب التربوية التي كُيّفت مع حاجات كلّ طفل... وأصبح الطفل الآن «محميًّا» بالقوانين التي تدين أيّ إساءة إليه يرتكبها شخص بالغ.

أدّت المكانة المركزية التي نالها الطفل إلى اهتمام كبير بكلّ ما يحيط بالأمومة. أخبرتني معظم النساء اللواتي يشهدن في هذا الكتاب، والعديد من النساء الأخريات، أنّ أسرهنّ وأزواجهنّ وأصدقاءهنّ مارسوا ضغوطًا غير مباشرة عليهنّ بشأن الطفل الذي سيولد. تطلّعت الجدّة فون بفارغ الصبر لأن تصبح أمًّا لجدّ. وكنت أنا من بين أصدقائي وأفراد عائلتي، أوّل أمٍّ وأصغرهنّ. على عكس صديقاتي اللواتي «تأخّرن في الإنجاب» أي عند بلوغهنّ 34 عامًا أو أكثر، فقد نجوت من الأسئلة المربكة والمتطفّلة جميعها بشأن رغبتي في إنجاب الأطفال ومرور الوقت. من ناحية أخرى، ألفتُ أن يسألني الناس لماذا أنجبت طفلًا واحدًا فقط – إذ يجد «الناس» هذا الأمر مريبًا – فأجد نفسي مجبرة على سرد قصّة حياتي كما لو كنت أبرّر لنفسي أو أمارس الألاعيب لأضع حدًّا لهذا الاستجواب.

.2

إلسي،
الرغبة في الإنجاب رغم كلّ شيء

أوّل امرأة التقيت بها لاستكشاف الندم على الأمومة هي من دائرتي المقرّبة. إنّها إلسي، إحدى صديقاتي. كانت والدتانا في الصفّ معًا في شورل، بالقرب من ألكمار في مملكة هولندا.

لطالما صرّحت إلسي بأنّها «لا تريد الأطفال». وكان الجميع يعلمون ذلك: عائلتها وأصدقاؤها وأصدقاء أصدقائها. وكان من المستحيل عليها أن تستسلم للضغوط الاجتماعية. «لن أتخلّى عن «حرّيتي». أنا سعيدة هكذا؛ تلقيت تعليمًا جيّدًا، ولديّ شهادة في الهندسة الزراعية، وزوج أحبّه ووظيفة».

لن تسمح إلسي لنفسها بأن تقع في شرك ما يتوقّعه الآخرون منها. وكانت قد أوضحت ذلك قبل عشر سنوات ولجأت إلى الإجهاض بدون أيّ قلق، بدافع هذا الاقتناع بأنّها لا تصلح لأن تكون أمًّا، على الرغم من أنّ هذه العملية غير البسيطة سبّبت لها الاكتئاب لاحقًا. وكان ذلك الاكتئاب ماكرًا: فما كانت لتكتشفه لو لم يضع طبيبها إصبعه على الجرح. لكنّها تؤكّد أنّها لم تندم قطّ على فعلتها. وتحسب من حين إلى آخر عمر ذلك الطفل لو وُلد وتشعر بالقلق عندما تتخيّل نفسها معه.

وساعدها انفصالها عن الشخص الذي شاركها حياتها في ذلك الوقت على التأكيد: «كان ذلك الطفل سيدمّر حياتي».

تبلغ إلسي من العمر 31 عامًا. هي متزوّجة وبالطبع يسألها الجميع: «إذن؟! متى ستقرّران الإنجاب؟» ويُحدث هذا السؤال، المطروح بحماسة شديدة، عاصفة في داخلها كلّ مرة. «لا أريد طفلًا. حياتي مكتملة. أحبّ حياتي، والحرّية التي تجلبها لي ولنا نحن الاثنين. ماذا لو ندمت ذات يوم؟ أو ما هو أسوأ من ذلك: ماذا لو أنجبت طفلًا بدافع الخوف من الندم على عدم إنجابه، وندمت في ما بعد على هذا الطفل – الذي بات موجودًا؟ فماذا نفعل عندئذ؟ وكيف نتصرّف؟».

إلسي شابّة صريحة ومرحة وعفوية. وتعلم أيضًا أنّها عندما تقول ببساطة: «لن أنجب الأطفال»، سيُحكم عليها فورًا. «نظرات عدم التصديق في عيون الآخرين. وأيضًا الصدمة، وعدم الاستيعاب، ونوع من أنواع الشفقة في بعض الأحيان. كيف يمكن لامرأة ألّا ترغب في الإنجاب؟ كيف يمكن أن تكتمل حياتها بدون هذا المخلوق الصغير؟ وتسمع عبارات مثل: «سترين عندما تصبحين أمًّا، ستفهمين! سوف تفهمين ما أقوله لك». فتردّد تلقائيًا لمخاطبيها: «حسنًا، إذن، أيعني ذلك أنّني لن أكون امرأة مع طفل، بل سأصبح أمًّا؟ ألن أكون إنسانًا، مجرّد وظيفة؟»».

تحمل هذه التلميحات كلّها رسالةً واضحة: المرأة التي لم تنجب ليست امرأة. المرأة التي لم تنجب لا تفهم الحياة. وجود المرأة لا قيمة له بدون أطفال. تعتقد إلسي أنّ وظيفة الأمومة ستمحو الشخص الذي هي عليه اليوم. وهذه الفكرةُ تشلّها. فترفض أن ترتدي هذا الزيّ التنكّري الفضفاض الذي لن يناسبها أبدًا. بالنسبة إليها، عليها أن تختار أحد الأمرَين. أن تكون ذاتها، أو تكون أمًّا.

ما يثير حفيظة إلسي على وجه الخصوص، هو أنّ الناس لم يتساءلوا عمّا إن كان زوجها يرغب في إنجاب طفل. الجميع مقتنع بأنّها هي، المرأة السيّئة، من تدفع زوجها جوريس إلى عدم الرغبة في الإنجاب. لا أحد يتساءل عمّا إن كان «مثلها» بكلّ بساطة. هل من غير المنطقي أن يحبّ هو أيضًا أن تكون حياته بدون قيود وأن يتمكّن من الاكتمال بواسطة حبّهما فقط؟ مكتبة سُر مَن قرأ

«لسنا كائنًا واحدًا، بل كائنان لكلٍّ منّا ميزاته. وعلى أيّ حال، لم أحلم قطّ بإنجاب طفل، أنت تعرفين ذلك! ولم ألعب بالدمى. تذكرين، لطالما فضّلت ألعاب الليغو، والرسم، والتزلّج على جليد أقنية المياه بمجرّد أن تتجمّد». هذا ما قالته لي خلال إحدى زياراتي لهولندا.

ما أفهمه هو أنّ صديقتي تفضّل السماح للطفلة التي كانت عليها بأن تستمرّ في العيش في داخلها. وأفهمها جيّدًا جدًّا، لأنّه لا يزال لديّ ذكريات حيّة ودقيقة للغاية من طفولتي. مع ذلك، أحاول أن أدرك كيف يتعارض الأمران.

«نحلم بإنجاب طفل، أو لا»... نحلم بذلك، ونرغب في ذلك، ونتخيّل ذلك. يبني الوالدان المستقبليان مشروع إنجابهما الأطفال وفقًا لخطّة حياة تتماشى مع المُثُل الشخصية والعائلية والاجتماعية، وفي حالات كثيرة، يتمّ الحمل أخيرًا بمشروع مبرمج، ما يطلق العنان للرغبات غير الواعية[1].

فتاة، فتى، شعر أجعد، عينان خضراوان، ابتسامة كبيرة، مرح، قويّ، نحيل، ذكيّ، عاقل... وفي الواقع، لا شيء من هذا كلّه. إنّه أشقر، عيناه زرقاوان، ولديه يدا لصّ كبيرتان، لكنّه سيركض بسرعة لأنّ قدميه

---

[1] Luis Alvarez et Bernard Golse, *La Psychiatrie du bébé*, Que sais-je ?, PUF, 2020.

كبيرتان[2]. إنّه يتذمّر بعض الشيء، مثل والده. وإضافة إلى كلّ شيء، لن يلعب في غرفة الجلوس لأنّها مخصّصة للوالدَين. ولن ينثر أغراضه في كلّ مكان.

يوم الولادة، يتغيّر كلّ شيء. تفسح مبادؤنا وطفل أحلامنا المجال لهذا الطفل الحقيقي. وتكمن الصعوبة عند الوالدين في التوفيق بين الطفل الذي تخيّلاه مع هذا المخلوق الصغير الذي قلب حياتهما اليومية رأسًا على عقب. طارت فكرتي المهمّة، التي تفيد أنّ أطفالي لن يلعبوا أبدًا في غرفة الجلوس، بمجرّد أن باتت ابنتي قادرة على الزحف! بصراحة، هذا المبدأ الذي أخذته من والدي، الذي تمسّك به طوال طفولتنا، لم يصمد.

تجربة الأمومة تجربة لا يمكن توقعها. إذا تخطّينا الحدس، لا يمكن للمرأة أن تعرف أيّ أمّ ستكون، كما تعجز عن معرفة أيّ طفل ستنجب. قد تتخيّل المرأة أمومتها، وتتصوّر شعورًا بالاكتمال مع طفلها، إلّا أنّها نادرًا ما تصل إلى حالة النيرفانا مع رضيعها في نهاية المطاف 24 ساعة في اليوم، و7 أيّام في الأسبوع... أولئك الأمّهات موجودات بالطبع لكنّ عددهنّ قليل، البعض الآخَر أمهات يخفن من الفشل، ويخشين ألّا يكنّ أهلًا للمسؤولية بالنسبة إلى أطفالهنّ، ولكن كيف يمكن معرفة ذلك قبل اختباره؟ كيف يمكنهنّ التأكّد من أنّهنّ يتّخذن القرار الصحيح؟ أمن الأفضل لهنّ أن يقضين حياتهنّ ندمًا أو حسرة؟ ما فائدة تأجيل مجيء طفل إلى وقت لاحق إن كان قد أتى؟ قال لي والد أحد الأصدقاء، وهو طبيب، عندما كنت حاملًا: «يجب أن يكون المرء مجنونًا بعض الشيء لينجب طفلًا. والظروف المثالية لن تتحقق أبدًا».

[2] Daniel Pennac, *La Fée carabine*, Gallimard, 1987.

وفيما كنت أوشك على إنهاء كتابة هذا الكتاب، تلقّيت رسالة بالبريد الإلكتروني من صديقتي إلسي.

عزيزتي ستيفاني،

سمعت أنّك تكتبين أخيرًا كتابًا عن الندم على الأمومة. لا يمكنني مقاومة رغبتي في إطلاعك على خبر مهمّ جدًا. يمكننا القول إنّ القدر يتلاعب بنا بسخرية... أنا حامل. نعم، يا سيّدتي!

وبعد مفاجأة اختبار الحمل الإيجابي هذا، أعترف لك بأنّني في نوع من النشوة. أعيد قراءة رسائل البريد الإلكتروني الخاصّة بنا ويرتدّ كلّ شيء إليّ من الماضي... ها أنا ذا حامل وسعيدة وفي الوقت نفسه خائفة. أخشى أن أندم بسرعة كبيرة على هذا كلّه...

أتذكرين؟ لقد لجأت إلى الإجهاض في عام 2011. قبل عشر سنوات على وجه التحديد، في شهر مايو أيضًا. أزعجني ذلك كثيرًا وأغرقني في كآبة عميقة. أعجز عن تخيّل نفسي أعاني ذلك مجدّدًا ولهذا السبب اخترت المخاطرة بأن أندم على هذه الأمومة لاحقًا... يتبع.

تحيّات من العائلة.

إلسي

أنا مذهولة. إذن، فضّلت إلسي المخاطرة بالندم على إنجاب طفل على الندم على عدم الإنجاب إطلاقًا. ما الذي قلب الميزان لصالح هذا القرار؟

خلال إنتاج فيلم وثائقي عن «الأطفال المنقذين[3]»، تلك الأجنّة التي يتم إنجابها «على الطلب» لإنقاذ أخ مريض أو أخت بفضل الخلايا

[3] « L’enfant du double espoir », France 5, produit par Illégitime Défense, février 2021.

الجذعيّة الموجودة في الحبل السرّي، قابلت نيلي أشور-فريدمان، أستاذة علم الأحياء التناسلي في مستشفى كلامارت. هي تتعامل باستمرار مع آباء وأمّهات مأزومين، وقد جعلتني أسأل نفسي: لماذا ننجب الأطفال؟

أبدافع الحبّ للزوج؟ أم لضمان استمرارية اسم العائلة وقيمها؟ أم بالصدفة بعد ليلة سُكر؟ أم للحصول على جنسية ما؟ أم لإعطاء معنى للحياة؟ أم لإنقاذ الزواج؟ أم للحؤول دون الملل؟ أم ليعتنوا بنا في شيخوختنا حتى لا نعاني الوحدة؟ أم للحصول على العطف الذي ينقصنا؟ أم لأنّه اختيار ديني أو أخلاقي؟ أم ليحقق الطفل ما لم نتمكّن من تحقيقه بأنفسنا؟ أم ليشعر المرء أخيرًا بأنّه بالغ ومسؤول؟ فلماذا لا يكون السبب إنقاذ طفل مريض؟ الغريب في الأمر هو أنّ هذا السبب الأخير يمر بصعوبة كبيرة في البرلمان لدى بعض النوّاب أو أعضاء مجلس الشيوخ.

يحتاج خيار الإنجاب إلى تفكيرٍ مليٍّ. فإنجاب طفل هو التزام طويل الأمد يتضمّن إعطاء الأولوية لهذا الخيار. إنّه التزام لمدى الحياة ويؤدّي إلى تغييرات عائلية، ومنزلية، وزوجية، ومهنية، ومالية. «إنّ قرار تأسيس أسرة ينبع إلى حدّ كبير من الاعتبارات العاطفية والمعيارية أكثر من الوعي بالمزايا والعيوب[4]». إنّ إنجاب طفل، في الحقيقة، له وقع أكبر من رفض الإنجاب.

لا تقتصر أوامر المجتمع هذه على إجبار النساء على الإنجاب من أجل بقاء البشر، أو «لإعطاء معنى» لحياتهنّ، أو لجعلهنّ يعتقدن أنّهنّ سيصبحن نساءً حقيقيات يؤخذن على محمل الجدّ بمجرّد أن ينجبن. لكنّ الأسوأ حتى من عدم الرغبة في الإنجاب، هو أنّ المجتمع يأمرهنّ بالصمت إن لم تناسبهنّ الأمومة. إلى الأبد.

---

4 Élisabeth Badinter, *Le Conflit, La femme et la mère*, Le Livre de poche, 2011.

.3

كولين،
الخيار المستحيل

بعدما تلقّيت رسالة إلسي، فكّرت فورًا في قصّة كولين وكأنّها امتداد لقصّة صديقتي.

كولين، التي تبدو كأنّها بالكاد بلغت الأربعين من عمرها، فيما يزيد عمرها عن ذلك عشر سنوات، حدّدت لي موعدًا في شقّة العزّاب الخاصّة بها في باريس. أحببت كثيرًا فكرة هذا الملجأ. هذه الغرفة الشخصية حيث تأتي للكتابة عندما لا يكون ابنها معها.

دخلنا مباشرة في صلب الموضوع. سمحت كولين لنفسها بالانجراف كما تحبّ أن تقول. فهي لطالما وجدت نفسها غير مستعدّة للإنجاب.

«كنت أقترب من سنّ الأربعين، وكان الجميع قد رُزقوا الأطفال من حولي. وأنا الأخيرة من المجموعة من دون طفل. أخي، الذي لطالما أحبّته أمّي أكثر منّي، رُزِق طفلَين وهو وزوجته يظهران سعادة مثيرة للإزعاج. كنت المخفقة في عيون أفراد عائلتي. تلك التي ينظرون إليها ويتساءلون: «متى ستتحمّل المسؤولية؟ لماذا لا تعيش حياتها كما ينبغي؟» فقرّرت أن أنجب طفلًا بدافع التحدّي.

كنت على علاقة مع رجل لطيف له ولدان. وبدا أنّه يعتني بهما جيّدًا. عندما كان يرعاهما، خلال عطلتَي نهاية أسبوع كلّ شهر، كنت أرسم أو أقوم بالأعمال اليدوية معهما وأحكي لهما القصص عن الأساطير اليونانية. وكانت المهمّة تتوقف هنا. كان يقيم في ليون وأنا في رانس، لكنّ جدول أعمالي المرن سمح لنا بأن نلتقي على الرغم من المسافة التي تفصل بيننا.

فيما كنت أقترب من عيد مولدي الثاني والأربعين قالت لي صديقتي، وهي طبيبة نسائية: هيّا، أنجبي طفلًا. إنّه الوقت المناسب. سأطلب لك فحصًا لمعرفة ما إن كانت بويضاتك لا تزال جيّدة. واتّضح أنّني كنت لا أزال في مرحلة خصبة جدًّا. فتوقفت عن تناول حبوب منع الحمل بدون أن أخبر رفيقي. من الناحية المالية، كنت قادرة على تحمّل النفقات. كنت خائفة من تقدّم ساعتي البيولوجية. وحملت بعد أسبوع واحد.

أودّ أن أقول بدايةً إنّ مسار العقبات بدأ في الحمام، فيما كانت ساقاي متباعدتَين، والبول على أصابعي، عندما أجريت اختبار الحمل وأدركت أنّني تسبّبت لنفسي بمصيبة الحمل.

اتّصلت بصديقاتي وخلال الأسابيع الأولى ضايقت الجميع. حصل كلّ شيء بسرعة كبيرة. انتظرت 43 عامًا – وأخذت حبوب منع الحمل 25 عامًا. ووجدت نفسي حاملًا خلال أسبوع واحد.

حاولت أن أفهم ما كان يحدث لي، لأنّني لم أكن على ما يرام. شعرت كأنّني أفقد السيطرة. وأخذت أفكاري تنبت من الجانب المظلم من شخصيتي، وتستحوذ عليّ رغبات ملحّة مفاجئة، أردت أن أختفي من الوجود، وبدأت أسمع طنينًا في أذنيّ، وأردت أن أؤذي نفسي، وأن أذهب إلى أقصى الحدود حتى لا أشعر بأيّ شيء، أن أشرب، وأدخّن، وأخرج، وأبتعد.

قابلت المجبّرين ومقوّمي العظام والأطبّاء النفسيين. كنت أفكّر في الإجهاض ثمّ في اليوم التالي أقول في نفسي: سأحتفظ به. أو أحدّد موعدًا مع طبيبي النسائي لحالة طارئة وأخرج من العيادة بأقصى سرعة عندما أرى النساء ببطونهنّ المستديرة في غرفة الانتظار وملصقات الأطفال ذوي الوجنات المنتفخة على الجدار، فأحدّد موعدًا آخر، ثمّ لا أذهب إليه. فعلت هذا أربع مرّات. أربع مرّات!».

سمحت كولين لنفسها بأن تقتنع بالمحادثات التي أجرتها مع بعض الأصدقاء والمختصّين في مجال الصحّة. وكان آخر من تكلّم دائمًا على حق. لم يعد لديها أيّ حرّية نفسية. تذكّرت طفولتها وعلاقتها بوالدتها، وخشيت أن تعيد إقامة تلك العلاقة المختلّة حيث كانت تتوسّل حبّها.

وبعد شهرَين ونصف من التفكير، قرّرت كولين الإجهاض. لكنّها تجاوزت مهلة إجراء عملية الإجهاض في فرنسا، التي تبلغ اثني عشر أسبوعًا من الحمل. وبدون تردّد، أخذت موعدًا في بلجيكا. فالأمر سهلٌ، وما كان عليها سوى أن تعبر الحدود. هناك، تستطيع المرأة أن تجهض ولو كان حملها ممتد إلى 14 أسبوعًا.

«أخذت موعدًا مع صديقة في التاسعة صباحًا لشرب القهوة بالقرب من محطّة القطار. كانت قد خطّطت لمرافقتي إلى بروكسل. باقتراب ساعة وصول القطار، كنتُ جالسة بارتياح على المقعد، فيما عمّت الضوضاء في المحطّة. كان الجوّ دافئًا في الداخل، لكنّه بارد في الخارج. جلست أرتشف الشاي، وأتحدّث مع صديقتي، ثمّ قلت لها: «المكان مريح هنا. لا يهمّ، لن نذهب». وواصلنا الحديث عن المعرض الأخير الذي زرته في باريس».

في اليوم التالي، حدّدت كولين موعدًا لحالة طارئة عند اختصاصية في الانهيار الجسماني والعقلي في رانس.

«سألتني: بماذا يوحي لك الإجهاض؟ أجبتها أنّني أشعر كأنّهم سيسلخون طفلي منّي. وعندما قلت ذلك شعرت بالارتياح، إلى درجة الاضطراب. في النهاية، ربّما كنت أتمتّع بـ«غريزة الأمومة». ستكون حياتي أفضل. طفل. ربّما سيشعرني بالاكتمال... أخيرًا.

انتقلت إلى ليون. واستقررت عند سيرج. أسعدته الأخبار السارّة. أنجبت طفلي، وسارت عملية الولادة على نحو جيّد وفي اللحظة التي حملته فيها بين ذراعيّ، علمت أنّني كنت نادمة. لكن بعد فوات الأوان. بقيت ستّة أشهر أخرى مع والد الطفل. فقد كان لطيفًا جدًّا، ومراعيًا إلى حدّ أنّني شعرت بالاختناق فهجرته. استاء كثيرًا لذلك، ورفض أن يراني وأن يرى طفله مجدّدًا لمدّة سنة ونصف.

جعلني الندم الذي شعرت به أتذكّر طفولتي ووالدتي. كانت جميلة جدًا. وكسرها إنجابي. كانت في الثالثة والعشرين من العمر، وأرادت أن تهرب من عائلتها بالزواج وهي شابّة مثل والدي، فتزوّجت بدلًا من نيل البكالوريا. كانت أمّي ما يمكن تسميته الأمّ الطفلة، تفتقر بشدّة إلى النضج، فيما كان والدي حنونًا ولطيفًا للغاية».

والدة كولين لم تحملها قطّ بين ذراعَيها ولم تواسِها، أو حتى تبتسم لها. لذلك فعلت الفتاة الصغيرة كلّ شيء لجذب انتباه أمّها. لبست ثوب المهرّج، وكانت متهوّرةً تارةً، وغاضبةً تارةً، وفي معظم الأحيان، كانت ظريفةً للغاية. بدون جدوى: غرقت والدتها في حالة اكتئاب عند الولادة – بحسب ما قاله لها أفراد عائلتها – وشعرت الفتاة الصغيرة بالمسؤولية لسوء حال والدتها.

«شعرت بأنّني غير محبوبة وسرعان ما استنتجت في حوالي الثالثة أو الرابعة من عمري، أنّ الإنجاب يسبّب المرض للمرأة».

عندما بدأ بطن والدتها ينتفخ وأدركت كولين أنّ أخًا أو أختًا صغيرة قادمة قريبًا، خافت على نفسها وعلى والدتها. هل كان يجب أن تضاعف جهودها لمنع والدتها من الانهيار أكثر بعد؟ «خلافًا لما توقّعته، اختلفت معاملة أمّي لأخي عن معاملتها لي: كانت محبّة وحاضنة. لكن ما إن تنظر إليّ، حتّى تختفي ابتسامتها. ما كنت أستحقّ الحبّ الذي كانت تكنّه لأخي. تطلّق والداي عندما بلغت الثانية عشرة من عمري وشعرت آنذاك بوحدة شديدة. وحيدة بين أمّي التي لم تحبّني وأخي الذي أفرطَت في حبّه».

لا تخفي كولين ندمها عن أمومتها، بل تتحدّث عنه، وتضحك بشأنه وتكتب عنه وتعيشه. وقد تحمّلت المسؤولية الكاملة عن ندمها هذا. فهي تجد نفسها في أسفل الهاوية قبل أيّامٍ قليلةٍ من عودة ابنها إلى المنزل يوم الاثنين كلّ أسبوعَين.

«من يوم الأحد، عندما أعرف أنّ ابني سيرجع في اليوم التالي، تنتابني نوبات القلق. أعرف أنّني في الأسبوع المقبل لن أكون قادرة على القيام بأيّ شيء. كلّ شيء معقّد للغاية. الطفل طاغية».

الطاغية يُدعى غاستون، وهو أشقر أجعد الشعر، ووسيم ولطيف للغاية.

«هو صورة عن والده، لكنّني عندما أراه، أقول في نفسي إنّني أستطيع الاستغناء عنه واستعادة حياتي السابقة. حين كان لديّ عشّاق. وكان يتسنّى لي الوقت لأفعل ما أريد، كيفما أريد ومتى أريد».

تشكّ كولين باستمرار في كلّ شيء، وهي تريد أن تقوم بالأمور على وجه صحيح. إنّها تحبّبك بنفسها. هي تريد الأفضل لابنها، لكنّها

تغيّرت. وأصبحت مزعجة: «رتّب غرفتك، هل أنهيت واجباتك؟ سمّع لي الاستظهار، كم تساوي سبعة ضرب ثمانية؟».

تحوّلت كولين إلى شخص لا ترغب في أن تتحوّل إليه. لذلك هي تخطّط، وتتذكّر ذلك الوقت المبارك عندما لم يكن هناك أيّ عائق أمام حرّيتها في الحركة. كما أنّ من الصعب حتى أن تكون المرأة أمًّا عزباء ولو لمدّة أسبوعَين في الشهر. فوالده ليس هو من يحجز المواعيد مع الطبيب، أو الحلّاق، أو يحضر الاجتماعات المدرسية، أو يشتري الهدايا للأصدقاء، والقرطاسية، ويجهّز الوجبات للنزهات، ويرافقه إلى دروس الموسيقى والجودو، حتى عندما لا يكون ذلك خلال الأسبوع المخصّص له. في الأسبوع الذي يكون فيه عند والده، يأتي بالعلامات الجيّدة، لأنّه راجع دروسه في الأسبوع السابق مع «ماما»، وعند كولين، يأتي بالعلامات السيّئة، لأنّه عند والده يلعب بجهاز البلاي ستيشن ويشاهد التلفاز. «أصبحتُ أمًّا «ثقيلة الظل». أستبق جميع الأمور، وأتوقّع أمورًا كثيرة. الأمر منهك. وما لا أطيقه، إضافة إلى ذلك، هو النصائح والدعوة إلى التعاطف والرأفة التي نجدها في جميع كتب الأمومة».

لذلك تحلم كولين بعالمٍ آخر. وتتخيّل أنّها ترحل. خطرت لها الفكرة أثناء مشاهدة ابنها يسحق حبّات التوت على الخبز وينثر عليها رقائق الشوكولاتة، وهو يلعب في الوقت نفسه ببطاقات البوكيمون الخاصّة به التي يغمسها في الزبادي ثمّ يلصقها على الحائط. الليلة ستذهب في نزهة سيرًا على الأقدام عندما يغفو.

نظرت إلى ابنها وهو نائمٌ كالملاك وسط ألعابه، على ضوء المصباح الصغير، وانحنت على وجه الطفل النائم بسلام وقبّلت خدّه السمين، وسحبت اللحاف على كتفيه وأغلقت باب الغرفة برفق فأصدر صريرًا خافتًا. يجب أن تتذكّر أن تزيّته. ثمّ انتعلت حذاءها الرياضي وارتدت

سترتها القطنية الزرقاء الصغيرة، وأخذت حقيبتها عن طاولة المدخل، وفتحت الباب وأوصدته بالمفتاح، من باب الحيطة، ونزلت الدرج ووصلت إلى الشارع.

ما كان يجب أن تفعل ذلك. ما كان يجب أبدًا أن تبتعد إلى هذا الحدّ. إنّها مجنونة. علمت ذلك بمجرّد أن نزلت إلى محطّة المترو. حالما أُغلق باب مقصورة القطار وراءها وابتعدت عن الصغير بطريقة حتميّة. عندما كانت لا تزال على المنصّة، راودتها التشنّجات. أيّ لعبة تلعبها؟ هناك محيط أمني ما كان عليها أن تتجاوزه. إنّها المرّة الأخيرة.

يجب عليها المضيّ إلى الأمام. فإذا عادت أدراجها، قُضي عليها. كلّ محطّة بمثابة لكمة إضافية. ماذا لو تعطّل قطار الأنفاق؟ في النهاية، لم تغيّر شيئًا من برنامجها. نزلت في محطّة بيلكور وتوجّهت إلى نهر السون.

ونزلت راكضة على الدرج المؤدّي إلى الرصيف. الماء، المساحة المائية الشاسعة. كعباها الرطبان على الجسر، والقبلات الرطبة.

نهر السون ملآن الليلة، واسع. بضعة سنتمترات بعد ويفيض عن مجراه.

سلكت جسر المشاة الأحمر، جسر العشّاق. هنا، غُلّقت أكوام من الأقفال والحليّ على امتداد السياج الأحمر. كريستوف أحبّك. لو + كميل. بابلو وياسمينة. جوسلين وفابريس. إلى الأبد.

المطر يهطل؛ هذا أفضل.

سرعان ما تبلّل شعرها، ففكّت الربطة المطاطية التي تربطه وحرّرته بحركة من رأسها.

تشعر بساقيها وفخذيها.

وظهرها وعنقها.

إنّها تمتلك جسدًا.

جسد بلا طفل يتمسّك به. جسد بدون عربة أطفال تشكّل امتدادًا له. بدا لها الأمر غريبًا في نزهاتها الأولى. وأحسّت نفسها عارية، ضعيفة. كما لو أنّ جزءًا منها بُتر، وهو امتداد لها يكاد يكون طبيعيًا.

لكنّها الليلة تشعر بأنّها خفيفة، خفيفة.

المضيّ إلى الأمام. على وتيرتها الخاصّة، لا وتيرة الطفل البطيئة المتأخّرة. العودة إلى جسدها. إلى حياتها[1].

تصرّفت كولين مثل بطلة ذلك الكتاب الذي رأيته على منضدة سريرها. رحلت. لكنّها لم تبتعد في الواقع. ذهبت فقط إلى الفناء. أنزلت صناديق القمامة وصعدت مسرعة، وفتحت باب غرفة الطفل وتأكّدت من أنّه لا يزال يتنفّس وينام جيدًا.

وتكمل كولين. «خلال إجرائي صورة بالموجات ما فوق الصوتية، شعرت بالارتياح عندما رأيت أنّ الطفل صبيّ. فقلت في نفسي إنّني أخيرًا سأكسر حلقة الأمّهات المجنونات في عائلتي. أمّي تعاني ثنائية القطب، وعانت جدّتي الهوس الاكتئابي. وقال لي أخي ليطمئنني: «إنّه فرنسي، سيستفيد من الضمان الاجتماعي، وفي النظام العالمي، سيكون على ما يرام». ومع ذلك أشعر بالندم الشديد لأنّني أنجبت هذا الطفل. أنا أحبّه. ويمكنني أن أقتل أوّل من يسبّب له الأذى، ولكنّني نادمة بشدّة على خسارة حياتي السابقة. وهذه المسؤولية أحملها في كلّ لحظة، وهذا الخوف يعذّبني بلا كلل».

أخشى أن تصرّح إلسي التصريح ذاته بعد بضع سنوات. وقد خطر لي أن أخبرها قصّة كولين ثمّ سرعان ما غيّرت رأيي. فعلى غرار كولين، لم

---

1 Carole Fives, *Tenir jusqu'à l'aube*, Gallimard, 2018.

ترغب صديقتي يومًا في الإنجاب وعلى الرغم من كلّ شيء، فإنّها تندفع نحو مغامرة الأمومة. المقارنة تتوقف هنا. وكلّ قصّة فريدة من نوعها.

تساءلت إلسي وكولين بشأن رغبتهما في الإنجاب، ولجأتا إلى حبوب منع الحمل وإلى الإجهاض، وهما حلّان اجتماعيان متقدّمان مكّنا المرأة من السيطرة على الإنجاب. الآن نقول للنساء اللواتي أصبحن أمّهات: «أنتِ رغبت فيه، فاقبلي واقعك وتولّي المهمة»، فيصبح الندم طيّ الكتمان. لذلك تمارس الأمّ ضغطًا شديدًا على نفسها لتلبية ما يتوقّعه منها المجتمع. وعندما يولد الطفل، تتخيّل أنّ خيارها الوحيد هو أن تصبح أمًّا مثالية وأنّ كلّ شيء يجب أن يمرّ من خلال طفلها. منذ مئة عام وأيضًا في أيّام الجدّة فون، أنجبت النساء الأطفال، الذين كبروا مهما كانت الظروف. لكنّ الضغط كان أقلّ شدّة، خاصّة في غياب صورة العائلة المثالية.

اليوم، ابتداءً من الإعلان الرسمي للحمل للأحبّاء والعائلة والأصدقاء والزملاء، يجد كلّ منهم شيئًا يقوله، أو قصّة يرويها، أو توصيات يقدّمها، أو على العكس تحذيرات في هذا الشأن. وعندما يتكوّر بطن المرأة يتخطّى الأمر دائرة المقرّبين، وقد يأتي التدخّل من سيّدة عجوز تقف في الصفّ في المتجر أو من سائق سيّارة أجرة أو نادلة في مطعم.

في جميع الأحيان تكون النيّة حسنة، لكن هذا التصرّف تطفّلي ومثير للقلق طوال فترة الحمل وما بعدها، الوزن الزائد، وداء المقوّسات، والمصّاصة، والولادة، والرضاعة... كثيرة هي المواضيع التي تثير الأسئلة وتعذّب الوالدَين لكنّها تعني، كما نرى، المجتمع بأسره. وصفت إليزابيت بادانتير هذا الوضع جيّدًا عندما كتبت: «الأمّ المستقبلية لا تملك نفسها».

مكتبة
t.me/soramnqraa

.4

أينا،
الأمّ المستقبلية التي
لم تعد تملك نفسها

قابلت أينا خلال دورة تدريبية في مركز التوظيف. بدت متوتّرة. فقد طال التدريب إلى ما لا نهاية وظلّت تراقب الساعة على هاتفها الذكيّ. فهمت أنّ عليها اصطحاب ابنها من المدرسة. واستغللت توجّهها نحو المخرج لأغادر المكان في الوقت ذاته ونمشي معًا. وبينما كنّا نسير في الشارع باتّجاه قطار الأنفاق، أخبرتني أينا، التي كانت تحتاج إلى التحدّث مع أحد، أنّها جاءت من مدغشقر للدراسة في فرنسا في أواخر التسعينيات، وأنّ أختين من إخوتها استقرّتا في جنوب شرق فرنسا. رأيتها مرحة وديناميكية، ويسهل الحديث معها.

قفزنا من موضوعٍ إلى آخرَ إلى أن بدأنا نتحدّث عن الأطفال، والحمل، والمشاكل الصغيرة، وإذا بإحدى أفكارها تصدمني: «منذ الشهر الخامس، أصبح بطني ملكًا عامًّا. كما لو أنّني أعرض حياتي الجنسية أمام أنظار الجميع».

في المتاجر، لم تتحمّل أينا المارّة الذين سمحوا لأنفسهم بأن يلمسوا بطنها بدون استئذانها كما لو كان «ملكية عامّة»، وكانوا يسألونها

بابتسامةٍ عريضةٍ عن تقدّم حملها أو كم بقي لها من أسابيع قبل الولادة. وبات هذا البطن المستدير في نظرها، مهتوكًا.

أخبرتني أينا عن الأشخاص المحيطين بها، أو حتى الغرباء في بعض الأحيان، الذين أعطوها رأيهم عن خياراتها الغذائية أو غيرها، وذكّروها بأنّ التدخين أو شرب الكحول أو تناول المأكولات البحرية مضرّ بالجنين. فالمجتمع بكامله يتدخّل، ويستحوذ على أجساد الأمّهات.

وأخبرتني أيضًا عن حياتها في بلدها الأمّ. تحدّثت عن جزيرتها، وأخواتها، وشرحت لي أنّه في مدغشقر عندما تصبح المرأة أمًّا، يتغيّر وضعها الاجتماعي. «لا يعود أحد يناديك «أينا» على سبيل المثال، بل «أمّ جول». في مجتمعات كثيرة، تُدلَّل الأمّهات لمدّة شهر على الأقلّ. في مدغشقر، العائلة بكاملها تحيط بك. هنا، في فرنسا، يرسلونك إلى المنزل وينتهي الأمر، وتتدبّرين أمرك بمفردك!».

عندما كانت أينا في الثلاثينيات من عمرها، وقعت في الحبّ، وسرعان ما رغبت في طفل من الرجل الذي أحبّته. أمّا هو فكان واضحًا جدًّا في هذا الشأن معها: الأمر غير وارد. فأنهت العلاقة بدافع إحباطها. بعد ثلاث سنوات، تعرّفت إلى فرانسوا وكانت علاقتهما خفيفة ولطيفة. وأملت أينا أن تتطوّر تلك العلاقة التي افتقرت إلى الالتزام، إلى علاقة أكثر جدّية.

«تناولت حبوب منع الحمل لسنوات، ولكن عندما قابلت فرانسوا، كنت قد توقفت عن تناولها قبل أشهر قليلة، إذ كنت عزباء. واعتمدنا وسائل منع الحمل الطبيعية. فإمّا أن ينسحب أو أن نستعمل الواقي الذكري. كنت أجازف بتعريض نفسي لإمكانية الحمل. وكنّا نتقابل من وقت لآخر. كان فرانسوا عشيقي، وكنت أحبّه. كنت في الخامسة والثلاثين من عمري، وكان طبيبي النسائي قد أخبرني من قبل أنّ الوقت

يمرّ وأنّني كلما طال انتظاري، تراجعت خصوبتي. ذات ليلة لم يستخدم فرانسوا الواقي الذكري وبعد ثلاثة أسابيع اكتشفت أنّني حامل. فقال لي فرانسوا، الذي كنت على علاقة معه منذ أكثر من عام وكان لديه أولاد: «افعلي ما ينبغي فعله: أجهضي». آلمتني تلك الجملة اللاذعة التي لا رجوع عنها بشدّة.

لم أرغب في إنجاب طفل بمفردي، إذ إنّني لم أستطع أن أتصوّر تربية طفل بدون أب. فكّرت في الإجهاض رغم تربيتي الدينية التي حرّمته. فقد نشأت وفق العقيدة الكاثوليكية، وكنّا نذهب كلّ يوم أحد إلى القدّاس، في تمام الساعة السابعة. في المناطق الاستوائية، إنّه الوقت المثالي. كانت والدتي ترتدي أفضل ملابسها وتعتمر قبّعة. أمّا نحن الأطفال، فكنّا نرتدي ملابسَ أنيقةً أيضًا وكانت العائلة بكاملها تذهب إلى الكنيسة. كان ذلك بمثابة حفل.

نشأت على أساس فكرةٍ مفادها أنّني، بصفتي امرأة، تكمن مهمّتي في ضمان مستقبل البشرية. ففي مجتمع مثل مجتمع مدغشقر، على سبيل المثال، «المرأة الصالحة» هي «الأمّ الصالحة» ولا تنجز المرأة مهمّتها في الحياة إلّا عندما تصبح أمًا.

عندما أخبرت والدتي بحملي، وقلت لها إنّ الأب لا يريد أن يحتفظ بالجنين وإنّني كنت أفكّر في الإجهاض، حثّتني على عدم القيام بذلك، قالت لي إنّ الله يحرّم ذلك، وإنّها ستساعدني. ولم تفعل شيئًا. ماذا يمكنها أن تفعل، فيما تقيم في مدغشقر وأنا في باريس. علاوة على ذلك، هي لم تعتنِ بأطفالها قطّ. كان أبي دائم الغياب. وكانت والدتي امرأة كارهة للنساء لها جانب ذكوري. كانت تقول: «النساء لا يجلبن سوى المتاعب». ولم تحبّ سوى أبنائها، وواحد على وجه الخصوص: الابن البكر جوزيف. أمّا أنا فكنت بمثابة خادمة لإخوتي ولأبي، وعندما كنت أقاوم ذلك كانت توبّخني. لم أفهم لماذا يجب أن تكون المرأة

أَمَة للرجل. وكنت منذ ذلك الوقت متعطّشةً للاستقلال والمساواة بين الجنسَين. وهي تطلّعات بعيدة كلّ البعد عمّا كان يحدث تحت سقف بيتنا عندما كنت طفلة».

ثمّ شرحت لي أينا ظروف الإجهاض في مدغشقر. سواء كان الإجهاض صدفةً أو متعمّدًا، يُعاقَب عليه بالسجن لمدّة عشر سنوات. كلّ يوم، تموت ثلاث نساء نتيجة الإجهاض. وقد فقدت أينا إحدى صديقات الطفولة أثناء عملية من تلك العمليات التي ينتج عنها أحيانًا ثقب للأعضاء أو نزف أو مضاعفات أخرى، فظروف العملية غير صحّية. الإجهاض هو أحد قضايا الصحة العامّة الأساسية في مدغشقر. فالموضوع محرّم في بلد يهيمن فيه الدين على المجتمع ويتوقّف استخدام وسائل منع الحمل على قبول الزوج بها، إذ يجب على المرأة أن تحصل على إذن زوجها إذا أرادت تناول حبوب منع الحمل. أينا مشبعةٌ بكلّ هذه القصص ومفعمة بهذا الاعتقاد الذي يتشاركه قسمٌ من الكاثوليكيين: «الإجهاض هو قتل لطفلك».

«على الرغم من كلّ شيء، بعد بضعة أيّام، رافقتني صديقتي آن إلى قسم تنظيم الأسرة في شارع فيفيان في الدائرة الثانية في باريس، على مقربة من مكان عملي. كنت أرغب في معرفة طريقة سير عملية الإجهاض إذا قرّرت الخضوع لها.

قابلت طبيبًا أولاني اهتمامًا كبيرًا بدون أن يطلق عليّ أحكامًا وشرح لي كيف ستجري الأمور عندما أتناول الحبّة المسبّبة للإجهاض. بعد أن أعطي موافقتي، أحظى بأسبوع من التفكير، في حال آثرت العدول عن المشروع. ثمّ كان عليّ أن آخذ حبّة أولى في عيادة الطبيب، وآخذ الثانية في منزلي وأنتظر الانقباضات إلى أن يسقط الجنين.

بعد أسبوعٍ من التفكير، رجعت، وحدي هذه المرّة، إلى قسم تنظيم الأسرة. وكنت قد عانيت الأرق في الليالي السابقة لكثرة مخاوفي وشكوكي حيال هذا الأمر. وفي الأيّام التي سبقت، حاولت مرارًا أن أقنع فرانسوا بأن نبني عائلة، على الرغم من أنّني لم أؤمن بالأمر كثيرًا. فجاء رفضه قاطعًا. واختفى من حياتي بعد ذلك. لم يكلمني ولم يردّ على أيٍّ من اتّصالاتي، فشعرت بيأس كبير. لكنّ قرار الإجهاض كان قراري أنا وحدي. وعزمت على مواجهة هذه المحنة وحدي. أتصوّر أنّني بدوت مذهولة عندما وصلت لآخذ حبّتي الأولى، نظرت إلى جميع من كان حولي وكأنّني أردت أن أحفر هذا الحدث في ذاكرتي. ثمّ تراجعت بطريقة آلية».

لم تستطع أينا أن «تسقط» ذلك الطفل الذي تحمله على الرغم من اقتناعها بأنّ الإجهاض هو الحلّ الوحيد. منعتها من ذلك سنون من التعليم والتلقين الدينيَين وخوفها من أن تحدث مشكلة خلال العملية. رجعت أينا إلى منزلها. ومرّت الأيام والأسابيع بهدوءٍ إلى أن بلغت شهرها الثامن فتذكّرت كلّ شيء.

على مرّ السنين، انتهت أينا إلى عدم التفكير في إحدى ذكرياتها، ودفنتها في أعماقها. لكن شيئًا فشيئًا، فيما كان حجم بطنها يكبر، سيطر عليها خوف إنجاب هذا الطفل، وغزاها شعور متزايد بالرهبة. كانت عاجزة عن فهم السبب. راودتها الكوابيس بانتظام، تستيقظ وهي تتصبّب عرقًا، ولا تستطيع أن تتذكّر منها شيئًا. لكن قبل شهر من تاريخ الولادة المتوقعة، تجلّت الذكرى، ونزلت عليها كالقنبلة.

ما كان العامل الأساسي كي تتذكر؟ ليست متأكّدة. لكنّها تعرف أنّ الذكرى حقيقية: « أخي البكر جوزيف كان يعتدي عليّ وعلى أخي الصغير».

«أخبرت أختيَّ اللتين تعيشان في فرنسا مثلي بالأمر، فانهارتا وغادرتا إلى مدغشقر على الفور لمناقشة الموضوع مع والدَيّ. كان أبي يجهل الأمر. وقد دمّره الخبر.

أمّا أمّي فكانت تعرف، وقالت لأختيَّ بدون أن تتوقف عن الطبخ، وكأنّ الأمر لا يعنيها: «يجب عدم المبالغة. لماذا طرح هذا الموضوع مجدّدًا؟ ما حدث قد حدث». ثمّ شرحت أنّ المهمّ هو حماية أخينا الأكبر. فقد كانت لأخي، وفقًا لوالدتي، «احتياجات جنسية كبيرة» عندما كان مراهقًا. وكان علينا أن نتفهّمه، فقد تدبّر أمره بما وجده «في متناول يده»: أخته وأخيه الصغيرَين».

ذُهِلَت أينا، ولم تفهم لماذا اتّخذت والدتها، التي يُفترض بها أن تحميها هي أيضًا، هذا الموقف. لماذا يجب أن ترمي أينا هذه الاعتداءات وراء ظهرها، وتنساها، من أجل «مصلحة الأسرة»؟ لماذا يُعذر سفاح أخيها للقربى، بينما يكون من واجبها «أن تتكتّم على الموضوع»؟

قد يسمح المجتمع أو العشيرة العائلية بإيقاظ ذكريات معيّنة أو لا يسمح بذلك. وهنا يمكننا أن نتكلّم عن اعتماد وسيلة الذاكرة غير الواعية، إذ تكون بعض الذكريات مسموحة على عكس البعض الآخر. وفي بعض الأحيان يعاد النظر في الأحداث للحفاظ على شكل من أشكال السلام الاجتماعي. قد تهزّ ذكرى أينا المؤلمة العائدة بنية الأسرة بكاملها.

تعرّضت أينا وفالي، شقيقها الصغير، لاغتصاب شقيقهما الأكبر بانتظام، من سنّ السادسة إلى الحادية عشرة. ووضعت أينا حدًّا لهذا الاعتداء عندما وجدت القوّة للصراخ والهروب من قبضته. فخاف جوزيف وتوقف عن هذه الممارسات بين ليلة وضحاها. وسرعان ما غادر المنزل ليقيم في مكان آخر. وانتقل فالي إلى نيوزيلندا ليقيم فيها بعدما أنهى دراسته، ولم يُرزق أطفالًا.

«أشعر اليوم بالندم الشديد لأنّني لم أنجح في الإجهاض؛ ولأنّني افتقرت إلى الشجاعة، ولأنّني مشبعة بالتربية الكاثوليكية ولم أتبع حدسي. لكن افهمي جيّدًا أنّني أحبّ ابني، فالذنب ليس ذنبه. لكنّني حلمت بالحرّية. وأردت أن أعيش بدون قيود. أشعر بأنّني وقعت في فخّ».

علمت خلال حديثنا هذا أنّ اسمها الأوّل، أينا، يعني «الحياة» في مدغشقر، فتأملت قليلًا في مغزى ذلك. ثمّ أكملت أينا الحديث وختمت قصّتها: «أتساءل عمّا إن كان جوزيف نادمًا على ما فعله بي وبفالي؟».

«على غرار المشاعر الأخرى، الندم هو شعور يعكس قيم الشخص واحتياجاته وقراراته وتاريخه الشخصي، لكنّه في الوقت نفسه يتشكّل بفعل المحيط والبيئة ويتبع الإطار الذي يحدّده المجتمع. ما يجعل التعبير أو عدم التعبير عنه ذا أهمّية اجتماعية»[1]. داخل المحكمة، غالبًا ما يقدَّر الندم ويشجّعه محامو المتّهمين. فهو دليل على إدراك المرء لأفعاله، وهو شبيه بالاعتذار. وغالبًا ما يكون الندم مصحوبًا بالألم والحزن. إنّه عقوبة مزدوجة في حدّ ذاتها، من شأنها في النهاية أن تصل إلى حدّ الإدانة.

على عكس ذلك، إنّ الذي لا يندم أمام القضاة وأمام ضحيّته يصبح وحشًا لا يفطن إلى حقيقة آثامه، بل يعاني حتى اضطرابات نفسية.

تغمر الأديان التوحيدية الثلاثة أتباعها بمصادر الخير، والشرّ، والذنب، والتسامح. الندم شعور أخلاقي، عندما يعبّر عنه المرء، يمكن أن يبرأ من الأفكار السيّئة والأفعال الخاطئة. لكن من الصعب للغاية، إن لم يكن من المستحيل، على الدين وعلى المجتمع، تشبيه ولادة طفل في هذا العالم بفعل بغيض. لهذا السبب، فإنّ الندم غير مسموح

---

1 Orna Donath, Le Regret d’être mère, Odile Jacob, 2019, ch. 3.

عندما يرتبط بالأمومة. هذه المبادئ تشكّل العقليات بلا وعي. والأمر مماثل بالنسبة إلى أسطورة «الأمّ الصالحة» المستوحاة من دينونة سليمان في الكتاب المقدّس العبري، التي تثقل كاهل الأمّ طوال حياتها وحياة أطفالها.

ادّعت امرأتان – تقول القصّة إنّهما عاهرتان لعدم وجود أيّ ذكر للأب أو للزوج – أنّهما أمّا الطفل نفسه. هما تعيشان تحت سقف واحد ويفصل بين ولادة ابن كلّ منهما أيّام قليلة. مات أحد الطفلَين أثناء الليل، وعلى الفور، بدون علم المرأة الأخرى، استبدلته والدته بالطفل الآخر الذي يتمتّع بصحّة جيّدة. في الصباح الباكر، لم تتعرّف الأم المخدوعة إلى الطفل الميت الذي يرقد إلى جانبها. كانت حدّة الخلاف بنفس مستوى آلام وغضب المرأتَين. فقرّرتا أن تلجآ إلى حكم الملك سليمان لتسوية القضيّة. بعدما استمع إليهما، اقترح الملك قطع الطفل الحيّ إلى قسمَين متساويَين وإعطاء نصف لكلٍّ منهما.

فقالت المرأة التي كان ابنها حيًّا للملك: «اسمع يا سيّدي! أعطها الطفل الحيّ ولا تقتله!» لكنّ المرأة الأخرى قالت: «لن يكون لي ولا لك! اشطره!».

فأجاب الملك قائلًا: «أعطها الولد الحيّ ولا تقتله: تلك هي والدته»[2].

الأمّ الصالحة هي التي تتخلّى عن رغبتها بغية إنقاذ الطفل؛ أمّا الأمّ السيّئة فهي التي تنجرف وراء التنافس إلى حدّ التضحية بالطفل.

---

[2] *Premier livre des Rois*, « Le jugement de Salomon » (3.16-28).

.5

كلارا،
«أسطورة الأمّ الصالحة»

تختبر العديد من النساء الأمومة على شكل تمزّق مؤلم. وتتجاذبهنّ الرغبة في «رعاية» أطفالهنّ بطريقة جيّدة من جهة، ورغباتهنّ الشخصية من جهة أخـرى. ويتراوحن بين الفرد الأنانـي –وجميعنا كذلك ولو قليلًا– وأسطورة الأم المثالية التي تضحّي بجسدها وروحها من أجل صغيرها، أو حتى صغارها. الطفل بالنسبة إليهنّ ليس مصدر تحقيق الذات المتوقّع كما أنه يصبح عقبةً أمام نموّهنّ الشخصي، فيعجزن عن التوفيق بين الرغبتين.

في كثير من الأحيان، في المخيّلة الجماعية، تفرض الوظيفة الأبوية هبة الذات، وهي شكلٌ من أشكال الزهد الكامل. ولفترة طويلة، تعرّضت الأمّهات اللواتي كنّ في عجلةٍ من أمرهنّ للانتقاد لأنّهنّ لم يحترمن «وقت الطفل» أو أردن وضعه في الحضانة في وقتٍ مبكرٍ جدًّا. لذا تختبر هؤلاء النساء الأمومة كواجب لا كمتعة. وتستوجب تلك الأمومةُ كلَّ شيء أو لا شيء. هذه فكرةٌ ساميةٌ عن مسؤوليات الأمومة من شأنها أن تمحو في النهاية الملذّات والفوائد التي يمكن استخلاصها منها.

عندما كتبت لي كلارا في اليوم التالي لبلوغها سنّ الثالثة والأربعين لتخبرني عن «ندمها على الأمومة»، أخبرتني على الفور أنّه كان عليها أن تسأل نفسها عن رغبتها في الإنجاب قبل أن تُرزق بأطفالها. فقد أنجبت ثلاثة أولاد وهم في سنّ: الخامسة عشرة، والثالثة عشرة، والتاسعة. ثمّ تحدّثنا لفترةٍ طويلةٍ على الهاتف مرّات عدّة.

كُيّفت كلارا لتكون «أمًّا صالحة» قبل وقتها. وهي مسؤولية تحمّلتها حتى الإرهاق حتى قبل أن تصبح بدورها أمًّا. عندما بلغت كلارا العاشرة من العمر، أنجبت والدتها طفلَين آخرَين بين ولادة كلٍّ منهما فترة قصيرة. جاء الصبيّ أوّلًا ثمّ الفتاة. واعتقدت والدتها أنّ وصول هذَين الصغيرَين سيخرجها من الاكتئاب الكامن الذي كانت تعانيه منذ عدّة سنوات. كان والد كلارا موظفًا في مجال التأمين، ويعمل كثيرًا.

كلارا، التي كانت في العاشرة من عمرها، امتلأ وجهها بالنمش الذي أعطاها مظهر الـ«عفريتة»، وعلى الرغم من أنّ أختها أكبر منها سنًّا، تولّت هي مسؤولية المنزل وتنظيمه والتسوّق وإعداد الطعام والعناية بأخوَيها الصغيرَين، ولا سيّما برفاهية والدتها. كانت دائمًا تحت تصرّفهم. وأكّدت لي أنّها لم تعش مراهقتها. وعندما كان أصدقاؤها يذهبون للتزلّج في الحديقة المجاورة لمنزلها، لم يغب جوليان ولويز عن ناظرَيها فيما يلعبان بالمزلجة بدون كلل وهما يضحكان. وفي المساء، كانت تعتني بحمّامهما، وتلبسهما ملابس النوم وتمسح الماء الذي رشّاه في جميع أنحاء الحمّام. نشأ الصغيران تحت ناظرَي أمّ لا مبالية. في المساء، كان الأب الذي يعود متعبًا من عمله طوال اليوم في المكتب أو في السعي إلى اجتذاب العملاء الجدد، يتأكّد من أنّ كلارا قد قامت بمهمّتها «كأمّ بديلة» بوصفها الأخت الكبيرة المثالية، وأشرفت على واجبات الطفلَين المنزلية.

والدة كلارا، وهي امرأة طويلة وأنيقة ذات عينَين حزينتَين، اكتفت بأن تكون معهم، في مكان ما بين غرفة نومها وغرفة الجلوس. لم تهتمّ لأيّ شيء. ولم تكن سعيدة. تشتبه كلارا اليوم في أنّ أمّها ندمت على ولادة الطفلَين الأخيرَين، والأسوأ من ذلك، ربّما جميع الأشقّاء، لكنّها لا تتحمّل هذه الفكرة. أمّا والد كلارا، الذي فضّل عدم إثقال كاهل زوجته المكتئبة، فقد اعتمد على ابنته لملء الفراغ الذي تركته زوجته، ودفعها إلى رعاية أخيها وأختها على حساب نموّها الشخصي كفتاة مراهقة. كان بين يدَيْ كلارا دميتان حيّتان قادرتان على الكلام، لويز وجوليان.

تعتقد كلارا أنّها أنجبت بدون تفكير، لأنّها تنحدر من عائلة كبيرة ولا يمكنها أن تتخيّل نفسها تعيش بأيّ طريقة أخرى. اليوم، تشعر بأنّها وقعت في فخّ هذا الدور. في العام الماضي، أدركت الانزعاج الذي كان يأكلها منذ ولادة ابنها البكر بعد قراءة كتاب منى شوليت، «ساحرات»[1]. فقد وصفت المؤلفة في الكتاب ما كانت تشعر به تمامًا.

بسبب «تجاوزاتهنّ»، وبسبب هذه «الوحشية التي يحملنها في داخلهنّ»، يجب تقييد النساء. عندما توقف المجتمع عن حرقهنّ بصفتهنّ ساحراتٍ يهدّدن المسيحية ويأخذن المجتمع إلى الهلاك، حُبسن، وأُبقين في المنزل أو استُغللن في وظائفَ وضيعة. لم يتح لهنّ الوصول إلى مباهج المعرفة، والاكتشاف، والإبداع، واتّخاذ القرارات، والتقدير، والاستقلالية.

اليوم، هذا هو شعور كلارا. إنّها تشعر بالاختناق، والغرق، والذوبان، والاختفاء، والانهيار، والتفكّك، تتآكل على مرّ السنين. لقد ضحّت بالشخص الذي كان من الممكن أن تكون عليه من أجل دور الأمّ والزوجة. لم تسمح لنفسها باختبار أيّ شيء.

---

[1] Mona Chollet, Sorcières, *la puissance invaincue des femmes*, La Découverte, 2018.

منذ أن أدركت كلارا هذا كلّه، وهو أمر يصعب عليها الاعتراف به، شعرت بأنّها أكثر قوّةً واستقلالية. لكنّها أيضًا تتعذّب كثيرًا. وتراودها هذه الأفكار بدون توقف. هي تحبّ أطفالها، فهي ليست باردةً ولا مستهترة، لكنّها تحلم بانتظام، منذ بضع سنوات، بأنّهم غير موجودين؛ أنّهم تبخّروا. في الصباح الباكر عندما تستيقظ، تشعر لثانية من الزمن بالراحة، والدعة، والحرّية، ثمّ تدرك أنّه مجرّد حلم.

تشعر كلارا بأنّها عالقةٌ في فخّ. مهما فعلت، فستكون دائمًا أمًّا. وتشعر بوحدةٍ عارمة. حركاتها ميكانيكية. في الصباح، تفتح عينيها قبل دقائقَ قليلةٍ من انطلاق المنبّه. فهي تستيقظ في وقتٍ أبكرَ من الجميع منذ زمن بعيد.

عندما كانت شابّةً، حلمت كلارا بأن تترك بواتييه لتدرس في معهد الفنون الجميلة في باريس، لأنّها تمتلك موهبةً صغيرةً كانت تودّ أن تنمّيها. لكنّها تفتقر بشدّة إلى الوقت. وعندما بلغت السابعة عشرة من عمرها، رأت مخرجًا من هذه الأسرة المقيّدة: أنطوان. كان في المدرسة الثانوية معها. وكانت تحبّه سرًّا. لم يتزوّجا إلّا بعد أربع سنوات. هو ذهب للدراسة في باريس وبقيت هي في بواتييه حيث حصلت على شهادة في التاريخ بدلًا من الفنون الجميلة.

تناولت كلارا مسألة الندم على الإنجاب مع أختها الصغيرة، لأنّ لويز تتساءل عنها. فهي تتردّد في الإنجاب رغم أنّها ليست على علاقة بأحد، لكنّ المسألة تقضّ مضجعها. وتريد أن تزن الإيجابيات والسلبيات قبل الشروع يومًا ما في الأمومة. لكنّ الحديث تعثّر. فقد تأثّرت كلارا بنظرة أختها الصغيرة لها.

«هي تراني كما ترى والدَينا. الفرق الوحيد الذي تعترف لي به، في أقصى حدّ، هو أنّني أعمل، على عكس والدتنا. في نظرها، وقعت

في الحالة النمطية، «الحلم الجاهز» المثير للشفقة: زوج، وأسرة كبيرة، ومنزل، وكلب، والسيّارة العائلية».

نظرة لويز لها هذه تغضبها. لكنّ كلارا غاضبة من نفسها في الواقع. وكانت تودّ كثيرًا لو سألت نفسها الأسئلة التي تطرحها أختها على نفسها اليوم. ومع ذلك فإنّها تكرّر، كما لو كانت تطمئنني، أنّها تحبّ أطفالها، لكن ليس في ظلّ هذه الظروف، حيث لا وجود لها من أجل نفسها. وهل أتيحت لها الفرصة لذلك يومًا، هي التي هُيّئت إلى أقصى الحدود لإنجاب الأطفال؟

تذكّرني قصّتها بالدمى. في العصور القديمة، استخدم الإغريق كلمة «كوريه» للإشارة إلى الدمية والفتاة. باللاتينية، يسمّونها **Pupilla**، وتعني الكلمة أيضًا حدقة العين. وهي موجودة في مرآة العين ويمكن اعتبارها نافذة الروح حيث تُمثّل الذات والآخر. ليست الدمية مجرّد حيلة بسيطة، بل حقيقة حيّة. يتحدّث دونالد وينيكوت طبيب الأطفال النفسي البريطاني عن الأغراض الانتقالية للدلالة على الإبهام أو الدمية الدبّ أو أيّ دمية أخرى كبديل لوجود الأمّ[2].

في مكان أقرب منّا، في الغرب ومنذ مئتَي عام، وُجدت أداة مثالية لإيقاظ «غريزة الأمومة» عند الفتيات الصغيرات. في بداية القرن التاسع عشر، كان للدمية مظهر شابّة أنيقة وكأنّها تهدف إلى أن تعطي للفتيات الصغيرات الرغبة في النموّ والإغواء. ثمّ في عام 1850، ابتكر مصنّعو الألعاب دمًى على شكل أطفال لا جنس محدّدًا لهم، فكان النجاح فوريًا، إذ أخذت الفتاة الصغيرة تؤدّي دور الأمّ.

من دمية القماش إلى الباربي، تنفرد الدمية في تتبّع نموّ الطفل وتتحوّل معه. فالدمية تعزّز لعب الأدوار وتبقى دائمة الارتباط بتعلم

---

2 D. W. Winnicott, *Jeu et réalité, L'espace potentiel*, Folio, 2002.

السلوك الأنثوي النمطي، كالخياطة، والتنظيف، والطبخ. وتؤدّي الطفلة دور الأمّ أو أيّ شخص آخر يعتني بالطفل (كالمربّية والمعلمة والطبيبة والممرّضة). وتطوّر الدمية الخيال، وكما تقول أختي، التي لعبت بها لفترة طويلة، «نتكلّم إلى الدمية، بينما نجعل الباربي تتكلم».

أصبحت كلارا أمًّا مع نموذج الأمّ الفاشلة ونموذج «الأمّ الصالحة» الذي يفرضه علينا المجتمع. الأمّ الصالحة هي التي تريد طفلها أن يعيش ويكبر في أحسن الظروف، ولو كان بعيدًا عنها. يتحدّث المحللون النفسيون اليوم عن «الأمّ الصالحة بما فيه الكفاية» أو «الأمّ المناسبة، ليس أكثر». إنّها امرأة وجدت المسافة الصحيحة بين احتياجات الطفل الحقيقية ورغباتها الخاصّة: ليست حاضرة للغاية ولا غائبة للغاية. وهذا فنّ عظيم غالبًا ما يصعب إتقانه. مع الأمّ الجيّدة بما فيه الكفاية، يطوّر دونالد وينيكوت مفهوم أمّ صالحة بما يكفي تستجيب بطريقة متوازنة لاحتياجات الرضيع، على عكس الأمّ التي «ليست صالحة بما فيه الكفاية» وتترك الطفل يعاني ويقلق، أو الأمّ «الصالحة جدًّا»، التي تفرط في توقّع احتياجات الطفل ولا تجعله يشعر بالنقص الكافي، وهو عنصر أساسي في تحديد الأنا المتمايزة عن الأمّ[3].

لم يقصد وينيكوت في عمله أن يجعل الأمّهات يشعرن بالذنب: فمبادئه ليست أحكامًا ولا تسعى إلى وصف شخص الأمّ، بل علاقة الطفل بموضوع الأمّ، الذي قد يكون مرتبطًا جزئيًا، لكن ليس بالضرورة، بالشخص الطبيعي. لكنّ قلق الأمّ على أن تصبح «أمًّا جيّدة» تخفّف وطأته «غريزة الأمّ» الشهيرة التي تمتلكها جميع النساء ومن شأنها أن تمنحهنّ القدرة على أن يصبحن أمّهات لا تشوبهنّ شائبة.

---

3 D. W. Winnicott, *La Mère suffisamment bonne*, Payot, 2006.

أخبرتني جميع النساء اللواتي التقيت بهنّ بمناسبة هذا الكتاب أنّهنّ لم يشعرن بأيّ شيء عندما وُضع أطفالهنّ على بطونهنّ بعد الولادة مباشرة. ولم يفاجئني ذلك قطّ، لأنّ الولادة عمل مرهق بالفعل.

لكنّ أوّل ما يتبادر إلى أذهانهنّ، وهو أمر نادر جدًّا، هو أنّهنّ عرفن، على الفور، عندما لامست بشرتهنّ بشرة أطفالهنّ، أنّهنّ ندمن على إنجاب هؤلاء الأطفال. هذه هي حال كولين وحال جيوليا التي ستتبعها. لا يحدث الارتباط مع الطفل تلقائيًا. يزعمون أنّ ملامسة جلد الأمّ لجلد المولود الجديد تعزّز العلاقة بين الأمّ والطفل وأنّ النموّ اللاحق للطفل سيكون أفضل. من المفترض أن تنتج آثار درامية من «فترة حسّاسة» لدى المرأة التي أنجبت لتوّها تكون خلالها عازمة هرمونيًا على قبول طفلها أو رفضه. سرعان ما أُضفي الطابع المؤسّسي على فكرة «الفترة الحسّاسة» لتعلّق الأم، فأصبحت أحيانًا مصدرًا لليأس والذنب لدى اللواتي لم يشعرن بأيّ شيء في وقت الولادة وما بعده.

أمّا غريزة الأمومة، خلافًا لاسمها الذي يدلّ على أنّها متجذّرة لدى جميع الأمّهات، فلم يعد هناك شك في أنّها شعور ينمو يومًا بعد يوم، وأنّه بالتأكيد ليس مدوّنًا في الجينات. على عكس ذلك، إنّها (أو ليست) ثمرة قصّة كلّ امرأة. للتعويض عن هذا الشعور بالندم الذي غزاها في جناح الولادة وغريزة الأمومة التي تفتقر إليها، ستسعى جيوليا وراءها بأيّ ثمن وتُخضِعها للاختبار.

6.

جيوليا،
البحث العبثي عن غريزة الأمومة

قابلت جيوليا بفضل أورنا دوناث التي اتّصلت بها على الهاتف لإعداد هذا الكتاب. وتواصلنا عبر البريد الإلكتروني والرسائل المكتوبة، قبل تحديد موعد لنا في حديقة في باريس. جيوليا امرأة صغيرة الحجم وأنيقة للغاية، وصلت بمعطفها الأسود الذي ربطته بحزام عند الخصر. قدّرت أنّها في أوائل الثلاثينيات. أخبرتني الشابّة، وهي من والدَين إيطاليَّين، أنّها نشأت في إيفلين. التقت بصديقها عندما كانت لا تزال في المدرسة الثانوية. كانت في السابعة عشرة من عمرها وهو في الخامسة عشرة. لم يقيما معًا على الفور. كان لجيوليا بعض المغامرات عندما كانت في كليّة الحقوق. ثمّ، في إحدى الحفلات، وقعت مجدّدًا تحت تأثير سحر باستيان. بسرعة كبيرة، وخلافًا لنصيحة والدَيْ جيوليا اللذين حلما لابنتهما بزوج طبيب أو محامٍ – بينما يعمل باستيان بالتسويق في شركة تصنيع مسامير وبراغٍ – استقرّ الشابّان في فيروفلي. هما متزوّجان منذ أن كانت في الحادية والعشرين من عمرها وهو في التاسعة عشرة.

«بعد أربع أو خمس سنوات، بدأ والداي يسألانني: متى ستنجبين لنا حفيدًا؟ وكنت دائمًا أراوغ أو أتجنّب الردّ. ثمّ أخذ باستيان يسألني

أيضًا: على فكرة، متى سنعمل على الإنجاب؟. في اليوم التالي لحفل زفافي، أعطتني جدّة باستيان خفّين صغيرَين حبكتهما بنفسها. كان الضغط يزداد قوّة. أمّا أنا، فلم أرغب يومًا في الأطفال. كنت أنتظر تلك الرغبة لكنّها لم تأتِ. وقضيت أيّامًا وليالي أفكّر في الأمر. كنت أنتظر تلك الرغبة العميقة التي يتحدّثون عنها. في النهاية، استنتجت أنّ إنجاب طفل كان الخطوة المنطقية التالية. المرحلة التالية.

الجميع يفعلون ذلك. الرغبة ستأتي مع الوقت. إنّني امرأة وكما فعلت والدتي وجدّتي قبلي، كان عليّ أن أفعل أنا أيضًا. ثمّ طمأنت نفسي بالتفكير أنّني كامرأة، لديّ بالتأكيد تلك الغريزة التي ستجعلني أمًّا جيّدة.

كان خطابًا سمعته في بيئتي العائلية وبين أصدقائي وقرأته في بعض المجلّات... وبعد، بصرف النظر عن تلك الرغبة التي لا تأتي وأعجز عن التحدّث عنها، لم يكن لديّ عذر «وجيه» في نظر أقاربنا لتبرير عدم الإنجاب من زوجي.

ذات يوم، ذهبت وحدي في نزهة على الأقدام في الدغل في كورسيكا. كانت لدينا بضعة أيّام إجازة. كلّ شيء كان بديعًا، الطقس، والمنظر، والبحر، والمناظر الطبيعية، والروائح، والضوء...

عندما عدت، كنت قد اتّخذت قراري.

وصلت إلى المنزل، وأخبرت باستيان أنّني سأتوقف عن تناول حبوب منع الحمل. وخلال إعلاني له أنّني مستعدّة، كنت لا أزال أحاول إقناع نفسي بالتكرار: هيّا يا عزيزتي، لقد استمتعت بالحياة جيّدًا، يبدو أنّه الوقت المناسب. الوقت المناسب لمن؟ ولماذا؟ لا أعرف. وممّا لا شك فيه أنّ باستيان وعائلتَينا كانوا في غاية السعادة!».

جيوليا ودودة، وأشعر بأنّ تحدّثها معي يريحها. أوشكت استراحة غدائها على الانتهاء لكنّها أبلغت مساعدتها أنّها ستصل متأخّرة عن مواعيدها المقرّرة في وقت مبكر من بعد الظهر. أرادت أن تستفيد من هذا الوقت لأنّها شعرت بالحرّية في التحدّث معي وقد شعرت بأنّني أستمع ولا أطلق عليها الأحكام.

بقينا جالستَين على مقعدنا في الحديقة وسط باريس حيث يلعب الأولاد ويصرخون، وتجرّ المربّيات عربات الأطفال، ويأكل المراهقون وجباتهم الخفيفة ويتشاركون سمّاعات الرأس للاستماع إلى الموسيقى؛ أتت سيّدة ترتدي فستانًا مزيّنًا بالورود تطلب منّا القليل من المال، لكنّنا كنّا مركّزتَين على حديثنا ولم ننحرف عنه. وأخبرتني جيوليا عن حملها.

«على الرغم من أنّ حملي سار على نحو جيّد، لم أشعر بشيء. اعتقدت أنّ رابطًا ما سينمو على مرّ الأشهر، لكنّني شعرت بالفراغ، على الرغم من التغيّر الذي ألمّ بجسدي، وبطني الذي تكوّر ونما وحركة الجنين بداخله. استغربت ذلك. بدأ شعوري بعدم الارتياح من هنا. كنت أبحث، وأنتظر شيئًا لم يحدث. وبغية الاقتراب إلى أكبر حدّ من طفلي، اتّبعت دروسًا في علم الملامسة للاستعداد للولادة، ومع ذلك لم تؤثّر عليّ هذه التقنية».

تم تحديد يوم الولادة لأنّ ولادة ابنتها ستكون مقعديّة. في النهاية، تسارعت الأمور. وُلدت قبل أسبوع من الموعد المحدّد.

بدأ جسد جيوليا ونبض قلب الطفل بالفشل.

«ذهبت إلى غرفة العمليات في حالة طارئة. وانخفض ضغط دمي أكثر فأكثر. لم أرغب في أن أخضع لبنج عمومي لإجراء العملية القيصرية. بل أملت على الأقل أن أختبر هذا الحدث. لكنّ المسكّن لم يجد نفعًا. وهنا اختبرت الألم إلى أقصى الحدود. وشعرت بمبضع طبيب

التوليد عندما فتح بطني. كان الأمر عنيفًا إلى حدّ لا يُصدّق. وضعوا لي قناع الأوكسجين. وانطلاقًا من تلك اللحظة، لا أتذكّر شيئًا على الإطلاق. خضعت لبنج عمومي واستيقظت في اليوم التالي.

رأيت طفلتي في الصباح الباكر. كانت بين ذراعَي والدها. وُلدت جيما في اليوم الذي وُلدت أنا فيه. في 14 فبراير، عيد الحبّ. تأثّرت عندما رأيتها، لكنّه لم يكن الحبّ من النظرة الأولى الذي توقّعته. لا شيء!». **مكتبة سُر مَن قرأ**

قصّة تاريخ الولادة ذاته تزعجني. ليست جيوليا الأمّ الأولى التي أجريت مقابلة معها من أجل هذا الكتاب وتشترك مع طفلها في تاريخ الولادة أو يكون التاريخان متقاربَين جدًّا، أو تكون تواريخ ولادة الأشقاء متقاربة جدًّا، أو أنّ الأمّ تنجب في اليوم الذي أجهضت فيه قبل سنوات.

على الرغم من وسائل منع الحمل والتخطيط للولادة، من المألوف أن تلد بعض الأمّهات، بعد بضع سنوات، في اليوم نفسه بالضبط؛ وهكذا يتشارك عدد من الأشقاء عيد الميلاد ذاته. قد يعتقد المرء أنّ هذه الظاهرة نتيجة الصدفة، لكن في كثير من الأحيان يكون هذا اليوم ذكرى حدث آخر ماضٍ ويأخذ قيمته كلّها في التكرار.

هذه الحقيقة السريرية، التي أبرزتها مونيك بيدلوفسكي[1]، وتتوافق مع التوقّعات أو مع مواعيد الولادة، تذكّر أحيانًا بأحداث مؤلمة أو بتاريخ ولادة أو إجهاض أو وفاة حديثي الولادة... لكنّها قد تكون أيضًا احتفالًا أكثر سعادة مثل عيد ميلاد أحد الوالدَين أو الأجداد على سبيل المثال.

ومن الجدير بالذكر مدى سرعة ربط الأمّ بين تاريخ الولادة والحدث الماضي. فيما حالات الحمل تخضع «للتحكّم» أو «للسيطرة» عمومًا في

[1] Monique Bydlowski, *La Dette de vie, Itinéraire psychanalytique de la maternité*, PUF, 2008.

هذه الأيّام، يمكننا بسهولة أن نستنتج أنّ هذه الظاهرة لا تكون مقموعة بقدر ما تكون غير واعية.

مهما كان الأمر، فسيحمل الطفل طوال حياته علامة الهويّة هذه، مسجّلة في سجلّات الأحوال المدنية، كتمثيل حرفي لأمّه. كما هي الحال مع جيما وجيوليا.

إذا سمحت امرأة لنفسها بأن تحبل، ولم يُحدَّد تاريخ الولادة، ووُلد الطفل في تاريخ ذكرى معيّنة، يمكننا القول إنّها عملية حسابية جرت في اللاوعي.

حان وقت مغادرة جيوليا حقًا، لكنّها أرادت أوّلًا أن تريني شيئًا: تناولت جوّالها من جيبها، وأعطتني إيّاه، وأصرّت على أن أنظر إلى مستند تحمله معها باستمرار حتى لا تنسى ألمها. لم أفهم على الفور ما هو.

مرّت الأرقام تحت أصابعي.

02/20

04 : 55-05 : 45 ؛ 06 : 30-08 : 20 ؛ 10 : 20 (غفوت مع جيما)؛ 12 : 05-13 : 20 ؛ 14 : 30-15 : 30 ؛ 16 : 30-17 : 00 ؛ 17 : 50-19 : 30 ؛ 22 : 00-22 : 35 ؛ 23 : 55.

02/21

00 : 35 01 : 25 04 : 25 06 : 00 07 : 05 08 : 50 10 : 50 12 : 30 13 : 15 14 : 30 15 : 00 17 : 10 18 : 55 بدون توقف 21 : 20 بدون توقف 23 : 20.

الأرقام لا تنتهي، وأصابتني بالدوار. هذه كلّها وجبات إرضاع من 9 فبراير 2020 إلى 8 مايو 2020، عند الانتقال إلى الرضاعة بالقارورة. عاشت جيوليا الرضاعة الطبيعية كمحنة وكارتباط قسري بطفلها

خضعت له. اليوم، وجدت أنّها أحسنت في تسجيل ذلك لأنّها تستطيع أن تطلعني عليه. أخبرتني أنّ جيما الصغيرة كانت مثل «صغير الباندا»، متعلّقة بثديها من الصباح إلى المساء. تحدّثت إلى موظّفي مصلحة حماية الأمّ والطفل في مدينتها في هذا الموضوع، وقيل لها: «سترين، ستنسين ذلك».

«أغضبني عدم الاكتراث هذا. هذا التقصير في الإصغاء. لا، لن أنسى. لا أريد أن أنسى. كرهت الإرضاع الطبيعي. قمت به فقط من أجل ابنتي لأنّني قلت لنفسي: هذا أمر من أمور الطبيعة. كاد الأمر يصيبني بالجنون. لن أعيد الكرّة أبدًا!».

سألتها لماذا أصرّت على إرضاع ابنتها بأيّ ثمن؟ وجيوليا أيضًا أدهشها أنّها استمرّت طوال تلك المدّة: أربعة أشهر. شرحت لي أنّها، من ناحية، استغرقت وقتًا طويلًا لتهيّئ الرضاعة الطبيعية. شهر تقريبًا. كان من المستحيل بالنسبة إليها أن تكون عانت كلّ ما عانته كي تصل أخيرًا إلى الرضاعة الطبيعية، ثمّ تتوقف على الفور.

«ضغطت كثيرًا على نفسي. وانتظرت، انتظرت، يائسة، أن تتجلّى غريزة الأمومة. قرأت مقالات كثيرة على الإنترنت. كنت أتصفّح مواقع مثل La Leche League[2]. كنت أجهل ما إن كان ينبغي عليّ أن أرضِع عند الطلب أم على العكس، أن أفعل ذلك كلّ ثلاث ساعات. لم أثق بنفسي. لم أعرف بماذا أفكّر بعد.

[2] حركة تقليدية أميركية نشأت عام 1956 في الولايات المتّحدة. اليوم، تقدّم هذه المنظمة غير الحكومية المشورة لمنظمة الصحّة العالمية واليونيسف. تنظم رابطة ليتشي الفرنسية «عملية الإرضاع الجماعية الكبيرة» كلّ عام. تأتي النساء للإرضاع في الأماكن العامّة لإقناع النساء الأخريات بأن يفعلن ذلك أيضًا. هذه المنظّمة غير الحكومية موجودة في سبعين دولة.

ولم يبخل عليّ أحد بنصائحه. وبعد ذلك انتظرت ما يُسمّى الحمّام الكبير من الأوكسيتوسين حيث عندما ترضعين طفلك، تصلين إلى شفير اللذة الجسدية، وتنسين كلّ شيء. لم أختبر أيًّا من ذلك. لن أنسى شيئًا. فليكن هذا درسًا لي».

70 في المئة من الأمّهات في فرنسا يخترن الرضاعة الطبيعية فور ولادة أطفالهنّ. وتتدنّى هذه النسبة إلى 5 في المئة فقط بعد سنة واحدة من الولادة. عادة ما تتوقف الأمّهات في فرنسا عن الرضاعة الطبيعية بعد ثمانية أسابيع فقط.

بينما توصي منظمة الصحّة العالمية بالرضاعة الطبيعية الحصرية لمدّة تصل إلى ستة أشهر، تستمرّ النرويجيات لمدّة ثلاثة أشهر على الأقلّ. هل تحجم الأمّهات عن القيام بالدور المتوقّع منهنّ؟

حدثت نقطة تحوّلٍ في نهاية التسعينيات عندما وقّع برنار كوشنير، وزير الصحّة الفرنسية آنذاك، مرسومًا يحظر توزيع الحليب المجفّف المجّاني في أجنحة الولادة، فانتقلت المرأة من الرضاعة الاختيارية إلى الرضاعة الملزمة. لا يمكننا القيامُ بعملٍ أفضلَ في تشجيع الرضاعة الطبيعية. إنّها سلطةٌ تمارَس على المرأة من أجل «مصلحة الطفل» ربّما... على حساب الأمّ، بكلّ تأكيد.

يبدو أنّ الطريقة التي تُمدح بها مزايا الرضاعة الطبيعية تعزّز صورة الأمّ التقليدية، في المنزل، التي تكون في اندماجٍ مع طفلها، وهي علاقةٌ يُستبعد منها الأب.

المرأة، خلال ستة أشهر على الأقلّ، هي أمّ فحسب، وإن لم تمتثل لذلك، سمعت تيّارًا كاملًا من الفكر الأخلاقي يخبرها أنّها ليست «أمًّا جيّدة» لأنّها لا تعطي الأفضل لطفلها. نموذج الأمّ هذا الذي يروَّج له مفعمٌ بالشعور بالذنب.

أتذكّر فيرجيني التي شاركت غرفتها معي في جناح الـولادة. لم ترغب في أن ترضع، فأقنعتها القابلات والممرّضات اللائي أظهرن الكثير من الاهتمام ووفّرن لها الكثير من التشجيع بإطعام ابنها اللبأ على الأقلّ في الأيّام الثلاثة الأولى. وقد صمدت أخيرًا، بطريقة ما، لمدّة شهر. أمّا أنا، فقد استمتعت كثيرًا بإرضاع ابنتي رضاعة طبيعية، لمدّة خمسة أشهر تقريبًا، ثمّ حتى تسعة أشهر في المساء، لكن أعتقد أنّني الوحيدة في دائرة عائلتي وأصدقائي التي أحبّت ذلك فعلًا. وجدت هذه التجربة عملية للغاية، ولا بدّ من أنّ الجانب البراغماتي الهولندي الذي كان ساكنًا في داخلي استيقظ في هذه المناسبة.

على غرار روسو في عصره، نريد تشجيع النساء على إعادة التواصل مع الطبيعة. اليوم، نتذرّع بالعودة إلى أمّنا الطبيعة، ويتفاقم الضغط عندما يتعلّق الأمر بالرغبة في التحكّم في أجساد النساء وخياراتهنّ. كلّ هذا باسم «غريزة الأمومة». كثيرات هنّ النساء اللواتي استسلمن لصورة إبينال للأمومة، وتحمّلن تشقّق حلماتهنّ، والإرهاق، وعدم كفاية الحليب، وقضين ساعات في انتظار أن يشبع أطفالهنّ. لكنّ المنادين بالرضاعة الطبيعية يرفضون هذه الأسباب كلها، ويعتبرون أنّه يمكن لجميع النساء أن ينجحن فيها.

من غير المعقول أن نفرض مجدّدًا نموذجًا واحدًا، أو طريقة تصرّف محدّدة، على الأمّهات اللواتي أنجبن لتوّهنّ. يجب أن يكون لكلّ منهنّ خيارات مختلفة من دون الحكم عليهنّ ومن دون اضطرارهنّ إلى تبرير أنفسهنّ. لم يعد خطاب ما بعد الحرب، الذي شجّع جميع النساء على ترك الرضاعة الطبيعية، مرغوبًا فيه. فالرضاعة الطبيعية مجال يشهد ضغطًا اجتماعيًا كبيرًا. وهذا الضغط يوصل إلى الأهداف المرجوّة.

متى تصبح «نصيحة» كالرضاعة الطبيعية الحصرية ضغطًا اجتماعيًا وتهميشًا وتخلق مناخًا سلبيًا للنساء اللواتي يرفضنها؟ إذا افترضنا أنّ

الرضاعة الطبيعية هي العنصر الذي يولّد حبّ الأمّ، فماذا عن الأمّهات اللواتي لا يرضعن أو يرضعن أطفالهنّ قليلًا فقط؟ هل سيعاني أطفالهنّ قصورًا عاطفيًا؟ ومن ناحية أخرى، كيف نفسّر عدم الارتباط الذي تشعر به بعض الأمّهات الشابّات المرضعات تجاه الأطفال الحديثي الولادة؟ هل هنّ أمّهات مهمِلات أو مسيئات؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

.7

سيلفي،
حدود خطيرة للندم
على الأمومة

عندما أتكلّم عن موضوع كتابي لمحيطي القريب أو المهني، يعتقد البعض أنّ الندم على الأمومة يتضمّن سوء معاملة الأمّهات لأطفالهنّ. لم تذكر النساء اللواتي استجوبتهنّ ذلك إطلاقًا ولا اللواتي قابلتهنّ بواسطة أورنا دوناث في دراستها. جميعهنّ يؤكّدن أنّهنّ لم يوفّرن جهدًا في الاهتمام بأطفالهنّ على الرغم من ندمهنّ على الإنجاب. كثيرات أكّدن لي أنّهنّ يحببن أطفالهنّ ويؤكّدن أنّ اللوم يقع عليهنّ لا على أطفالهنّ الذين لم يطلبوا أن يولدوا.

لكنّ ندم سيلفي كبير إلى حدّ أنّها اعترفت لي بأنّها فضّلت أن تغضّ الطرف عن تصرّف الأب العنيف، وعلى ضربه للولدَين بحزامه أحيانًا. كان ندمها أكبر من أن تجازف وينتهي بها الأمر بالحضانة الكاملة لها.

بقي ابنها البكر في برد قارس خارج المنزل عقابًا له، ودفع الوالد ابنه الثاني بقوّة كبيرة جدًا أدّت إلى كسر جبيرة ساقه المكسورة. هذان مثلان فقط من أمثلة أخرى... عجزتُ عن الكلام. أزعجني هذا الاعتراف كثيرًا. وجدت ما عانياه مروّعًا، وفي الوقت نفسه أدركت عذاب تلك الأمّ التي اختارت أن تتجاهل تعرّض ولديها لسوء المعاملة حتى لا تُجبر

على «تحمّلهما» يوميًا. جعلني هذا الاعتراف أدرك مدى تأثير الندم على الأمومة، فألم سيلفي كبير إلى حدّ يدفعها إلى تعريض ولدَيها للخطر.

ردّت سيلفي على رسالة نشرتُها على منتدى خاصّ بالأمّهات، عندما كنت أبحث عن نساء يرغبن في التحدّث معي عن الندم على الأمومة. قمت بذلك قبل بضعة أشهر من بدء التحقيق لأنّني اعتقدت أنّ أولئك النساء لن يأتين إليّ إلّا بعد وقت طويل. لدهشتي الكبيرة، لم تنقضِ سوى عشرة أيّام حتى وردني الردّ الأوّل، ثمّ تبعه ما لا يقلّ عن ثلاثين ردًّا.

ذات مساء، قضيت أنا وسيلفي ساعات على الهاتف. وما إن بدأ حديثنا حتى قالت من دون مقدّمات: «لو أمكنني أن أعيد الكرّة، فلن أنجب مجدّدًا. لقد عانيت الأمرّين. فقد أخذا منّي كلّ شيء. وقتي وحرّيتي وطاقتي. أصبحت إنسانًا آليًا. سيبلغ ابني البكر السادسة عشرة من عمره في نهاية الشهر. إنّه عمري بالتحديد عندما انقلبت حياتي رأسًا على عقب. يُخيَّل إليّ أنّني أعيد التاريخ».

عندما بلغت سيلفي السادسة عشرة من عمرها، كانت لديها رغبة واحدة فقط: الرحيل عن منزلها. في صيف الانتقال من الصفّ الأوّل الثانوي إلى الصفّ الثاني، ذهبت هذه السمراء الصغيرة ذات الغرّة التي حجبت عينيها الخضراوين في رحلة إلى الولايات المتّحدة. وفتحت تلك الرحلة عينيها. وطوّرت إحساسها بالمغامرة والسفر واكتشفت طعم العزلة. عادت متحمّسة ومختلفة. وباتت تعرف ما ستفعله في الحياة: السفر. رحلة حول العالم، بكلّ تأكيد. لكن، لدى عودتها، نزل عليها خبر صعقها، إذ أعلن لها والداها أنّهما سيتطلقان. لم تُفاجأ سيلفي. فهما لم يظهرا يومًا الكثير من الحبّ الواحد تجاه الآخر، فضلًا عن حبّ شديد لأولادهما.

«كان والدي يحبّ النساء، وخاصّة زوجات الآخرين. وكانت أمّي مستاءة جدًّا لأنّها تعرف أنّه يخونها. المدينة بكاملها كانت تعرف...».

كان والد سيلفي تاجرًا. يملك شركة تجارة قطع للسيّارات في سيت وكانت والدتها تعمل معه. عندما انفصلا، أصبحت عاملة تنظيف في مدارس المنطقة. وسرعان ما أدمنت شرب الكحول.

لم تكن مونيك، والدة سيلفي، هادئة أبدًا. تزوّجت في سنّ صغيرة وأنجبت في عيد ميلادها الحادي والعشرين. وسيلفي مهما حاولت، لا تتذكّر أنّها رأت والدتها سعيدة قطّ. ويُخيّل إليها أنّها خيّبت أملها منذ ولادتها.

«كنت ذات يوم في السيّارة مع والدتي. لا أذكر إلى أين كنّا ذاهبتَين أو من أين أتينا. وكانت والدتي قد شربت كثيرًا خلال النهار، لكنّها أصرّت على القيادة. وتعرّضنا لحادث. حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة. تدحرجنا. ثمّ لم أعد أتذكّر ما جرى. حالفنا الحظّ كثيرًا. منذ نعومة أظافري، أدرك أنّ والدتي لم تكن قادرة على الاعتناء بي. عرف والدي ذلك أيضًا، لكنّ مناقشة الموضوع كانت تُعدّ تابو. حاول والدي مساعدة والدتي، وشجّعها على الذهاب إلى اجتماعات مدمني الكحول. ثمّ توقف عن دعمها ذات يوم. كان قد التقى بامرأة تصغره بخمسة عشر عامًا. وبالكاد تكبرني بستّ سنوات. وحتمًا، لم نعد أولوية في نظره».

أحسّت سيلفي أنّ هذا التغيير، أو تركيب الأسرة الجديدة، يعني أنّ أباها تخلّى عنهما. قرّر والدها، الذي كان يبخل عليهما بحنانه في الأصل، أن يحبّ امرأة أخرى. وسرعان ما جاء أخ صغير، واستطاع بابتسامتَين وثلاث نظرات أن يفوز باهتمام والدها وحبّه اللذين لم تتمكّن يومًا من الحصول عليهما. ولم يتغيّر ذلك أبدًا.

«فعلت كلّ ما باستطاعتي لجذب انتباهه: الرياضة التي تتطلب جهودًا كبيرة مثله، والتسلّق منذ أن كنت في السابعة من عمري، كما كنت أفوز في سباقات الماراثون. بذلت كلّ جهودي لأجعله فخورًا بي. على الرغم من أنّني كنت فتاة، كان بمقدوري أن أصبح قويّة ومتميّزة

كالفتيان. لكنّ كلّ ذلك كان من دون جدوى. فهو لم يقل لي كلمة مشجّعة واحدة ولم يُظهر أيّ علامة مودّة تجاهي. لم يدعني أبدًا لقضاء إجازة معهم، أي مع عائلته الجديدة. كنت أقضي إجازتي في سيت، على الدوام، بينما كانوا يذهبون إلى كورسيكا، وإيطاليا، وباريس، ولندن. لحسن حظي، كان لديّ جدّة أعشقها. كانت تسكن في الريف على بعد حوالي عشرين كيلومترًا منّا. كانت طبّاخة ماهرة وتعتني بي جيّدًا. وكانت شخصيتها قويّة جدًا. وهي والدة أمّي».

توتّرت العلاقة بين سيلفي ووالدتها. وأخذت المراهقة تهتمّ بالتسوّق والطهو بعد المدرسة والتنظيف والبريد الذي يُرسل إلى الدوائر الإدارية، بينما تعيش والدتها على مضادّات الاكتئاب.

«كانت العلاقة متعبة ومقيِدّة وقاسية مع والدتي، وحتى عنيفة. كان عليّ أن أراقبها باستمرار. كانت تعاني النوبات بانتظام. تختفي في بعض الأحيان، وترفض أن تنام في سريرها، أو تنام على الأرض أو ترحل عن المنزل. وفي أحد الأيّام، عندما كنت بالكاد في السادسة عشرة من عمري، أصيبت بالتهاب السحايا. ومكثت عدّة أسابيع في المستشفى. وعندما عادت، كان عليّ أن أهتمّ بها أكثر. كان عالمًا مقلوبًا. كانت وقحة ومهينة. تنعتني بـ«البقرة السمينة» و«العاهرة». وقد آلمني ذلك كثيرًا. ثمّ بدأت ترتدي ملابسي وأحذيتي. صارت تغار منّي في وقت مبكر جدًّا. كانت تذلّني فيما كان عليّ أن «أفهمها وأقبل» عبثها وتجاوزاتها. كانت تسخر منّي بطريقة مؤذية، ولا أعرف كيف أردّ عليها. وأتحمّل. وعندما كنت طفلة، كانت توصلني متأخّرة إلى المدرسة، أو تأتي لتصطحبني بعد أن يرحل الجميع. ذات يوم دخلت المستشفى لأنّني جُرحت. لا هي ولا أبي أتيا لاصطحابي.

والأسوأ من ذلك أنّها كانت تتسكّع مع رفاقي في المدينة. كانت تشرب وتدخّن معهم. كنت أشعر بالخجل الشديد عندما أراها. إلّا أنّ

أصدقائي كانوا يجدونها لطيفة ومضحكة جدًّا. فقدت السيطرة على كلّ شيء. وهي أيضًا. عندما كنت في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمري، كانت بالكاد في الخامسة والثلاثين وترتدي ملابس مراهقة. شعرتُ بالوحدة والإهمال. وانقطعتُ عن الجميع، وتشبّثت بدراستي وأحلامي بالسفر. لم تستحق والدتي أن تكون أمًّا، ولم ترغب يومًا في أن تكون أمًّا».

سيلفي لم تتمرّد. ظلّت رصينة إلى أقصى حدّ، بينما كيانها بكامله يغلي. غادرت المنزل في سنّ الثامنة عشرة، وهي تحمل شهادة البكالوريا، وقالت «إلى اللقاء» لوالدتها، وانقطعت عنها انقطاعًا شبه تامّ. ولأنّها كانت طالبة جيّدة وشجاعة، اتّبعت دروسًا في التعليم وعملت في المطاعم لتلبية احتياجاتها. لكن قبل الشروع في الحياة العملية وتأسيس عائلتها، سافرت سيلفي إلى آسيا وأميركا الجنوبية وأوقيانوسيا واستقرّت في نيوزيلندا لفترة من الوقت. ولم تستهوها فكرة الإنجاب بعد كلّ ما عانته في طفولتها. سترى...

بتّ عاجزة عن إيقاف سيلفي عن الكلام، على الرغم من أنّها امرأة وقورة، وكانت تختار كلماتها بعناية كي أفهم جيّدًا. تتالت الأفكار وتصاعدت المشاعر، وتزاحمت الذكريات. وكأنّها تذكّرت تسعة وأربعين عامًا من الإحباط والحزن وسوء الفهم والغضب والظلم. كان الحديث على الهاتف مع امرأة غريبة يريحها. أثّرت فيّ سيلفي. فهي لم تشكُ من طفولتها أو مراهقتها. إنّها واقعية. بل تكاد تكون منفصلة عن الواقع.

بعدما سافرت سيلفي حول العالم، ووضعت حدًّا لعلاقتها بوالدتها، وجدت وظيفة كمدرّسة في ضواحي باريس حيث التقت بوالد طفليها. وتوالت الأحداث. وأنجبت سيلفي طفلها الأوّل بعملية قيصرية بعد تعرّضها لحالة تسمّم الحمل. كادت تخسر حياتها هي وطفلها. وبعد عام،

أصيب شريكها بالسرطان، وما إن تعافى، حتى حملت سيلفي مرّة أخرى. فقد أراد طفلَين، ابنين.

لإكمال صورة الأسرة التي تقاوم كلّ شيء، قبلت سيلفي تنفيذ مشروع شريكها. ترميم مزرعة قديمة. وبينما كان الأب يقوم بالأعمال المنزلية، اعتنت هي بالولَدين. لأكثر من أربع سنوات، شعرت كأنّها جليستهما.

«منذ البداية، لم أحبّ الأمومة. لم أستيقظ في الليل لإعطائهما الحليب، وفي المساء تركت والدهما يهتمّ بحمّامهما. كان اللعب معهما مضنيًا. أقلّه، أحببت أن أقرأ لهما القصص، لكن في الواقع تلك المهامّ كلّها لم تهمّني. أردت أن أهرب منها ومن نفسي».

ثمّ قال لها ذات صباح: «أريد أن أقيم في الجبل. وحدي». وانتهت قصّتهما. كانا قد اتّحدا واستقرّا معًا قبل عام عندما بلغت الأربعين لتوّها.

«وجدت نفسي وحدي مع طفليّ، وكان أحدهما في الرابعة من عمره والثاني في السادسة. على الرغم من كوني مدرّسة، على الرغم من أنّني أعرف كيف أدير فصلًا فيه ثلاثون طفلًا في الروضة، لم يرُقْني أبدًا الاعتناء بطفليّ. أعرف أنني أفتقر إلى غريزة الأمومة. عندما رحل والدهما تساءلت: «ماذا سأفعل؟» وقلت في نفسي: «لا بدّ لي من أن أهتمّ بهما.» أدركت في وقت متأخّر جدًا أنّني كنت أمًّا، عندما كان ابني في السابعة من عمره. أعاني مشكلة خطيرة تتعلّق بالمساحة التي أعيش فيها. فهما يشغلان مساحةً كبيرةً جدًّا منها. لقد قمت لفترة طويلة بحماية والدتي من نفسها. وحميت نفسي منها في المقابل. أمّا اليوم، فلم أعد قادرةً على فعل ذلك من أجل طفليّ».

سيلفي تأسف لأنّ لها أمًّا كوالدتها، ووالدتها تأسف على هذا الدور، وتندم سيلفي بدورها لأنّها أمّ... هذا التسلسل يصيبني بالدوار. هل الندم على الأمومة وراثي؟ هل يمكننا أن نقول إنّ النساء اللواتي افتقرن

إلى عاطفة أمّهاتهنّ في سنٍّ مبكرةٍ سيصبحن بدورهنّ أمّهات فاشلات، أو يواجهن الصعوبات، أو «يندمن» أيضًا أثناء الحمل وخلال السنوات التالية له؟

استوضحت من طبيبة نسائية في بروكسل عن هذا الموضوع. في شهر مارس الماضي، كنت جالسة في غرفة الانتظار في عيادتها، وأثناء قراءة مجلّةٍ قديمة، سمعت، بدون تمييزٍ دقيقٍ لما يقال، المريضة التي سبقتني. بينما كنت أركّز على مقالةٍ، توقفت فجأةً عن القراءة. كانت السيّدة الشابّة تبكي بتوتّرٍ بينما تحاول الطبيبة النسائية طمأنتها. لم أستطع أن أسمع الحديث بقدر ما رغبت في السماع.

ماذا يحدث لها يا تُرى؟ أهو خبرٌ سيّئ؟ أم هو قلقٌ يولّده قرارٌ يتعيّن عليها اتّخاذه؟ شعرت بالأسف لأجلها. فراقبتها بهدوءٍ وهي تغادر الغرفة. بدت لي في أوائل الثلاثين من العمر. وبدت مستاءةً جدًّا.

جاء دوري. ونسيت السيّدةَ الشابّةَ على الفور. بعدما كشفت الطبيبة عليّ وكتبت لي وصفةً طبّيةً، أخبرتها أنّني أعمل على تأليف كتاب عن الندم على الأمومة. وإذا بها تتوقّف على الفور، وتضع نظّارتها على المكتب وتقول لي:

«السيّدة الشابّة التي غادرت للتوّ مكتبي عبّرت عمّا يعذّبها منذ عامَين هما عمر ابنتها. إنّها نادمة على إنجابها. قالت إنّها لم تجرؤ على إخباري بالأمر من قبل. هذا الندم أكثر شيوعًا ممّا تعتقدين، لكنّهنّ يخجلن من الحديث عنه. ولا يتعلّق الأمر بالكآبة النفاسية. إنّها حالة عميقة ومؤلمة. أحذّر مريضاتي دائمًا عند بلوغهنّ خمسة أشهر من الحمل من خلال التوضيح لهنّ أنّ الرابط مع أطفالهنّ قد لا ينشأ على الفور، ولكن غالبًا بعد أيّام قليلة، بعد انخفاض نسبة الهرمونات.

لسنا في هوليوود حيث كلّ شيء جميل ورائع والأمومة مثالية، بل تحتاج الأمّ إلى بعض الوقت لتستوعب ما يحصل لها، ولتتعافى من كلّ ما تمرّ به عاطفيًا، ولتدرك: أنا من صنع هذا. بعد هذا الوقت، عمومًا، يعود كلّ شيء إلى طبيعته ثمّ تبدأ العلاقة بين الأم والطفل ونقع في حبّ هذا الشخص الصغير. مع الأمّهات اللاتي يشعرن بالندم، لا يحدث هذا أبدًا. فلو استطعن العودة في الزمن، لما أنجبن. معاناة أولئك النساء هائلة. ويبوح عدد أكبر فأكبر منهنّ بمشاعرهنّ هنا. وقد لاحظت قاسمًا مشتركًا بينهنّ: غالبًا ما تعاني أمّهاتهنّ خللًا ما».

في الواقع، لاحظت خلال لقاءاتي أنّ الغالبية العظمى من النساء اللاتي يشعرن بالندم لديهنّ تاريخ عائلي صعب، وخاصّة مع أمّهاتهنّ.

لقد كبر طفلا سيلفي. بلغا الخامسة عشرة والسابعة عشرة من العمر، ويتقاسم والداهما حضانتهما. عندما يكون الولدان في منزله، تعزل سيلفي نفسها تمامًا. لا تشعر بالحاجة إلى الاتّصال بهما. لا تشتاق إليهما. تعرف أنّهما في مكان ما وهذا يكفيها. «أنا مرشدتهما. لست أمّهما. يزعجني هذا الدور. أريد أن أعلّمهما القيم. أحاول زرع البذور. أحبّ أن أمشي معهما في الغابة. أكلّمهما عن الطبيعة وعن الحشرات. أعرف كيف أقول «أحبّكما» لولديّ».

أخبرتني العديد من النساء اللواتي التقيت بهنّ من أجل هذا الكتاب أنّهنّ يحببن أطفالهنّ. هل لموازنة الاعتراف بالندم على الأمومة؟ هل لإيصال الرسالة التي يجب أن تحملها كلّ أمّ لطفلها؟ لكن ما طبيعة هذا الحبّ، عندما لا تتفتّح الأمّ في الأمومة، ولا تستمتع باللعب مع أولادها، وتحلم برحيلهم المستقبلي من المنزل، وفي أسوأ الحالات تغطّي سوء معاملة والدهم لهم؟ لا يسعني إلّا أن أسأل نفسي السؤال الذي استحوذ عليّ لياليَ عديدةً، لكنّه سيبقى بلا إجابة، هو أيضًا!

تشير فيولين جيلي، المختصّة النفسية، إلى أنّ «الندم على إنجاب طفلٍ يختلف عن عدم حبّه. بعض النساء لا يعبّرن عن ندمهنّ عندما يكون أولادهنّ معهنّ، بل في غيابهم وعندما يتسنّى لهنّ الوقت للتركيز مجدّدًا على أنفسهنّ».

.8

لونا...
الحبّ بأيّ ثمن

لكي يصبح الطفل فردًا، يحتاج إلى أكثر من الرعاية الحيوية المتعلقة بتطوّره الجسدي. يجب عليه أيضًا أن يدخل عالم اللغة وأن يُمنح مكانًا خاصًّا به في مجموعة أو عائلة كشخص متميّز ومرغوب فيه. افتقرت لونا إلى هذا بشدّة ووجدت نفسها عاجزة تمامًا عندما أنجبت طفلها.

إنّ منح الحياة هو أهمّ شيء بالنسبة إلى لونا. وكانت لديها رغبة قويّة في الإنجاب. «عندما كنت حاملًا، كنت في أفضل حال نفسية وجسدية. وكانت ولادتي يسيرة». كانا متحابَّين هي وجيل. التقيا في حفلة، كانت هي في الثالثة والعشرين من عمرها، وقد أخرجها من شرنقة أسرتها المطمئنة. أنهت دراستها في مجال الإعلان، وسافرت إلى الولايات المتّحدة وآسيا، ووجدت وظيفة جيّدة في إحدى الوكالات وكانت مغرمة به. «سمحت لنفسي بأن أنجرف برغبتي. في تلك اللحظة من حياتي، أردت أكثر من أيّ شيء في العالم أن أهب الحياة!».

تفصل لونا تمامًا الرغبة في إنجاب الطفل وفي منح الحياة عن الرغبة في أن تكون أمًّا والالتزام الذي ينطوي عليه ذلك. وتعترف: «لم أكن مستعدّة لأن أكون أمًّا».

عندما كانت تحمل طفلها بسلام، بدأ جيل يشعر بالغيرة. لم يكن مساندًا لها إطلاقًا، واستمرّ في القول لها إنّها سمينة وبشعة، وإنّ الرجال ينظرون إليها بشهوة وإنّها تفعل ذلك عن قصد. كان مستبدًّا، ولاذعًا. لكنّ لونا لم تعتبر الأمر خطرًا. وتحمّلته إذ كانت تحمل الحياة ولم تعتبر أنّ هناك ما هو أغلى في نظرها.

لماذا اعتبرت أنّ منح الحياة أمر «ثمين» إلى هذا الحدّ؟ يبدو أنّها تربطه بقصّتها.

«بدأت حياتي عندما بلغت السنة الأولى من العمر. عندما جاء والداي ليتبنّياني في نيبال. قبل هذا الحدث، لم أكن شيئًا». كان والدا لونا قد تبنّيا شقيقَين توأمَين من نيبال قبل ذلك بثلاث سنوات. جاءت أمّها من عائلة برجوازية في شرق فرنسا ونشأت في مؤسّسات كاثوليكية صارمة للغاية. واحتفظت من هذه النشأة بميل مفرط للطاعة والعمل الخيري في الديانة المسيحية. أمّا أبوها فهو من عائلة أقلّ رفاهية لكنّها أكثر سعادة، على الرغم من أنّ والدته المصابة بالفصام قد أمضت معظم حياتها تجول في أروقة مستشفيات الأمراض النفسية.

في أواخر سبعينيات القرن الماضي، التقى والدا لونا، ووقعا في الحبّ، وبما أنّ أمّها نشأت في بيئة عرفت فيها الهجران، أرادت تبنّي الأطفال للتعويض عن ذلك. تبنّيا ثلاثة أطفال في الثمانينيات، وانطلاقًا من ذلك الحدث مزّق أحدهما الآخر. ويستمرّان في ذلك حتى اليوم. لكن كما تقول لونا بضحكة كبيرة تُخفي بعض الفزع: «إنّها طريقتهما في العيش. وعلينا أن نتماشى معها».

لطالما شعرت لونا بأنّ والدتها تعتبرها «شيئًا تملكه» وأنّها تتوقّع من ابنتها أن تبتسم وتعمل جيّدًا فقط. وقد تفوّقت لونا فعلًا في كلتا الفئتين.

«جاء هذا الحمل لاقتلاع كلّ شيء. أوهامي كلّها، وبنائي لهويّتي، والحلم الذي تشبّثت به. ما سأقوله مروّع، لكن ما إن خرجت طفلتي من رحمي، وجاءت إلى العالم، حتّى اكتشفت مشاعر جديدة تتعلّق بجسدي وبشيء لم أشعر به من قبل.

ولادة ابنتي كانت ولادتي. لقد وُلدتُ عندما وُلِدَتْ. ظهرت مشاعرُ عميقة. وفهمت أنّني بدون والـدَيّ، لا وجود لي. كنت فارغة. عندما أنجبتُ ابنتي، كان عليّ أن أملأ هذا الفراغَ وأن أبنيَ نفسي. أعتقد أنّ لديّ مشكلةَ هويّةٍ سببها التبنّي».

وكما لو أنّها أرادت أن تطمئنني، أضافت: «ليس الأمر خطرًا. فالمرء يتدبّر أمره دائمًا في الحياة من عمر صفر إلى عمر سنة، افتقرت إلى تلك العلاقة العصبية الكيميائية، ونظرية التعلّق التي أحسَنَ وصفَها بوريس سيرولنيك، وتنمو في الوعي البشري، في وعي النفس والآخر. لم أكن سوى شيءٍ حيٍّ صغيرٍ في مهد. أطعموني وغيّروا حفاضاتي، لا أكثر. لم يأخذني أحدٌ في حضنه ولم يلاطفني أحد، إطلاقًا».

لم تحظَ لونا بأيّ رعايةٍ محدّدة. لم يخاطبها أحدٌ قبل عيد ميلادها الأوّل كشخص فريدٍ ومتميّز. كان الاهتمام الذي حظيَت به ميكانيكيًا.

«أدركتُ هذا كلّه مع طفلتي. وحاولت أن أعوّض معها عام الحياة الذي فاتني. لكن لم أشعر بأيّ عاطفة. لم أشعر بشيء. لم أتمكّن من إنشاء رابط. كنت هنا. وخُيّل إليّ أنّني أفعل ما يجب فعله. لست شغوفةً بالملامسة، ولست شرّيرة. لكنّني لا أميل إلى التقبيل. شعرتُ بأنّني أمٌّ صالحة. أحببت الاعتناء بها كثيرًا. لم تضايقني الوتيرة التي فرضَتْها عليّ هذه الطفلةُ الصغيرة. أطعمتها، وغيّرتُ حفاضاتها، وصنعتُ لها هريسة الفاكهة اللذيذة. كان عليّ أن أبقيها على قيد الحياة!

لكن هذه الفتاة الصغيرة – وهي فتاة إضافة إلى كلّ شيء – ضربت على وتر حسّاس في داخلي، وحطّمت الهوية التي بنيتها لنفسي خلال أربعة وعشرين عامًا. لم أتوقّع انهيار هويّتي مع ولادة الطفلة».

بعد ساعة ونصف من الحديث مع لونا، أدركت أنّني أجهل اسم ابنتها. تسمّيها «الطفلة» أو «الفتاة الصغيرة». كنت أتوقع أن تطلعني عليه بعفوية. وحاولت أن أفهم المسافة التي تضعها بينها وبين ابنتها.

«لطالما رغبت ابنتي في النوم في سريري بعد أن قرّرنا أنا ووالدها أن ننفصل. كانت في الثالثة أو الرابعة من العمر. من الواضح أنّها كانت بحاجة إلى اتّصال جسدي. لكنّ ذلك كان جحيمًا بالنسبة إليّ، إذ كنت متوترة. وكنت سريعة الغضب. أشعر بألم في جسدي، وبالاضطهاد، وبالألم في عضلاتي، وأعاني الأرق».

ذات ليلة قالت في نفسها: «إمّا أن تعيش هي أو أنا. سأموت. لست بخير على الإطلاق. على هذا أن يتوقف». خجلت لونا ممّا شعرت به. وشعرت بالذعر حيال أفكارها.

«إمّا أن أخنقها أو أذهب إلى طبيب نفسي».

خنقها أو الذهاب إلى طبيب نفسي... اختارت الخيار الثاني وإنقاذ نفسها.

«كلما كبرت ابنتي وبدأت تتكلم، علّمتها أن تحمي نفسها من أمثالي. كنت أعاني فترات طويلة من الغياب، أجلس في فقاعاتي وعندما كانت تلما في الرابعة من عمرها، قالت لي: ماما أنت تخيفينني. كنت هنا جسديًا، لكن عقلي كان في مكان آخر، بعيدًا عن المطبخ أو غرفة النوم أو مكان وجودنا. كان عقلي يجول ويغوص أحيانًا في أحلك غياهب أفكاري. وكأنّ شيئًا يسحبني، فأقع في حفرة. كنت أشعر بالفراغ، وهذا ما كانت ابنتي تراه. فراغي الداخلي».

لا شيء يمكن أن يوقف أفكار لونا. كانت غائبة عن نفسها. لا تعني لها هويّتها كأمّ شيئًا. كان هناك فراغ من المعنى دفعها إلى مكان آخر مجهول.

في هذه المرحلة من الحديث، فهمت أنّ الطفلة تُدعى تلما... حتى اختيار اسم ابنتها، ذهبت للبحث عنه في إحدى القصص الخيالية. إنّها إشارة إلى فيلم ريدلي سكوت وإلى تلك المرأة التي تعشق الحرّية.

بالنسبة إلى لونا، بدا أنّ السنة الأولى من حياتها أحدثت فجوة في وجودها. فجوة لم يستطع أن يملأها حبّ عائلتها بالتبنّي. فجوة سقطت فيها عند ولادة ابنتها.

عندما بلغت تلما السابعة من العمر، اشترت لونا دمية للتحدّث من البطن، حتى تتمكّن الأم وابنتها من الحديث، لم تتمكّنا من التواصل بطريقة أخرى. هذه الدمية جعلتهما تنفتحان. عندما تغضب تلما، تتحدّث من خلال الدمية التي تُدعى كوكو. وقد أصبحت صديقة العائلة. وبعد ذلك بأشهر قليلة وصل الكلب توتورو.

«لفترة طويلة جدًا، منذ أن كانت ابنتي في سنّ الثانية حتى سنّ التاسعة، ضايقني الاتّصال الجسدي. كانت بشرتها تؤلمني. وكنت عاجزة عن لمسها، كان الألم جسديًا كما لو كانت ابنتي ترتدي بذلة مغطّاة بالأشواك.

في البداية، استخدمت وسادة وضعتها بيننا عندما كان عليّ أن أعانقها كما تفعل جميع الأمّهات. ثم بفضل الكلب – الذي يمنحني شعورًا بالتعلّق والفرح – كنّا نتعانق عناقًا عائليًا. عندما تطلب منّي ابنتي أن أعانقها، أذهب للاختباء في الحمّام مع الكلب، وأشحن نفسي بطاقته ودفئه، وفقط بعد هذه الطقوس المفعمة بالحيوية، أستطيع أن أضمّ ابنتي إلى صدري».

بفضل هذه الحيل المذهلة والمبتكرة، تمكّنت لونا من الخروج من هذه الفجوة الهائلة التي ابتلعتها. ما افتقرت إليه في طفولتها المبكرة تجسّد في أشياء خارجية، الكلب أو دمية التكلم من البطن.

«ابنتي هي الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي أكون معه على سجيّتي. فلا أحتاج إلى «إبهارها» لأشعر بالارتياح. أرغب في أن أحبّها. أغضب أحيانًا، وأحيانًا هي تغضب. وعندما نشعر بالحبّ الواحدة تجاه الأخرى، تصرّح أحدانا للأخرى بذلك. إنّها علاقة بلا خداع. لقد تعلمت ذلك بعلاقتي معها.

عندما كانت تلما تعود إلى المنزل بعد أسبوع قضته عند والدها، كنت أشعر بالقلق المتزايد وأقول في نفسي:

اللعنة! بهذه السرعة؟! لكن بمجرّد عودتها إلى المنزل، كنت أعيد كلّ شيء إلى مكانه ونستعيد إيقاعنا معًا ونلعب ونستمتع.

كلما فتحت قلبي شعرت بالحب الذي تكنّه لي ابنتي، بدأت أشعر بحبّ أكبر تجاهها. ذات مساء، عندما كانت في الرابعة من عمرها، مدّت لي يدها الصغيرة فشعرت باضطراب كبير، لكنّ الرابط بدأ ينشأ منذ ذلك الحين باعتقادي».

لنسج هذا الرابط العاطفي احتاجت لونا إلى رابط حقيقي ملموس تجسّد بيد ابنتها الممدودة. ومن هذا المنطق نفسه، تمكّنت لونا من التواصل مع تلما من خلال وضع يدها في دمية التكلم من البطن. وأصبحت هذه الدمية الوسيط الذي يسمح بتبادل الحديث بين الأم وابنتها. إنّها فكرة بارعة أتاحت لها ألّا تخذل ابنتها.

عادت لونا إلى الحديث عن تبنّيها وأخبرتني أنّ والدها بالتبنّي أعطاها تاريخ ميلاد والدته. وُلدت لونا في مكان ما في نيبال في عام 1986. ووُضعت على درج معبد، فاستقبلها الرهبان وأودعوها دارًا

للأيتام. كانت لم تبلغ الشهر الواحد من عمرها وفقًا لأوراق التبنّي والمعلومات القليلة التي بحوزتها. وبقي تاريخ ولادتها مجهولًا من جرّاء ذلك. ولكن عندما جاء والداها الفرنسيان لتبنّيها بعد عام، كان لا بدّ من إعلانها للسلطات وحدّد والدها بالتبنّي تاريخ 5 يوليو كتاريخ مولدها، وهو تاريخ مولد والدته، جدّة لونا بالتبنّي.

«لم يكبر أبي مع والدته، إذ كانت تدخل مستشفى الأمراض العصبية بانتظام. كانت مصابة بالفصام. ولم أعرفها جيدًا. وقد تجنّب أبي أن نكون على اتّصال بها. أعتقد أنّ هذه العلاقة مع والدته أصابته بقلقٍ عميقٍ طوال حياته».

على الرغم من كلّ شيء، عندما كان عليه أن يختار تاريخ ميلاد لابنته بالتبنّي التي تفتتح حياتها الجديدة، فقد اختار تاريخ ميلاد والدته المنهارة.

تمامًا كما هي الحال في قصّة جيوليا، فإنّ تاريخ ميلاد لونا المختار عن قصد هو بمثابة إحياء لحدث آخر من الماضي.

أتذكّر أنّني سمعت والدي يشكو عدّة مرّات من أنّ تاريخ ميلاده يقع بفارق أيّام قليلة من تاريخ ميلاد والدته، وأنّه مضطرّ إلى مشاركة هذا الاحتفال معها، وهي لم تكن دائمًا ودودة معه. لكن، خلافًا للونا، كان لوالدي تاريخ ميلاد حقيقي محدّد.

٩.

أمبر،
ندم على الأمومة لا رجوع عنه

نجد في حضارات كثيرة ارتباطًا وثيقًا بين فكرتَي الولادة والموت. وغالبًا ما ترتبط الخصوبة النسائية بهما. بعض النساء اللائي استطعتُ أن أقابلهنّ من أجل هذا الكتاب أخبرنني أنّهنّ شعرن أنّهن يولدن من جديد عندما أنجبن أطفالهنّ. جاءت ذاتٌ أخرى إلى العالم، مسبّبةً موتَ الشخص الذي كنّ عليه من قبل.

شعرت أمبر بالحاجة إلى الحديث عن ندمها عندما أدركت أنّها لن تستعيد حياتها وما كانت عليه قبل ولادة طفلها، وأنّ الأمومة التي اختارتها على الرغم من كلّ شيء كانت هويّةً لن تتخلّص منها أبدًا.

كان الحلّ الوحيد هو التعامل مع ندمها بالحديث عنه عبر مواقع التواصل الاجتماعي التي تسمح بعدم الكشف عن هويّتها.

تـردّدت الـشابّة لفترة طويلة قبل إطـلاق حسابها، وخشيت التداعيات ورسائل الكراهية على فايسبوك التي لاحظتها في مواضيع حسّاسة أخرى. لهذا السبب فضّلت إنستاغرام حيث يضمّ حساب Leregretmaternel خمسة آلاف مشترك. واحتاجت إلى شهور قبل أن

تعترف لزوجها بما كانت تتحدّث عنه وما كان يشغلها في الليل بدلًا من الذهاب إلى الفراش.

«الحديث عن الندم على الأمومة على إنستاغرام يريحني. كما تريحني قراءة ما تقوله أولئك النساء عن تجربتهنّ مع الأمومة أيضًا. التواصل مع أمّهات هنّ في موقفي نفسه يريحني ويساعدني على الصمود. أستخدم اسمًا مستعارًا مثل جميع المشتركات في حسابي. هناك أمّهات أقابلهنّ هنا في كيبيك حيث أقيم منذ عشر سنوات، أو في فرنسا في شبكة أصدقائي الموسّعة. فوجئت كثيرًا عندما اكتشفت أنّهنّ أيضًا يعانين الندم ذاته الذي أشعر به».

لطالما اعتقدت أمبر أنّها تريد إنجاب طفل. في عائلتها، كانوا ثلاثة. نشأت مع أختها وأخيها في بيئة برجوازية في شمال بريتاني.

«كان والداي يسرعان إلى الكنيسة كلّ يوم أحد برفقتنا نحن الثلاثة، مرتدين ثيابًا متشابهة كتوائم مجلّة مدام فيغارو الثلاثة، وهم الأبطال الصغار الذين رسمتهم نيكول لامبير. كان من المهمّ أن نجلس في الصفّ الأمامي لكي يرانا الجميع. لنظهر أنّنا أسرة موحّدة».

كانت أمبر تحبّ التواصل مع الأطفال، والاستمتاع معهم وتدليلهم. وحلمت الشابة بتكوين أسرة كبيرة بدورها. وكان حمل أمبر مبهجًا، وولادتها خاليةً من المتاعب. ولطالما اعتقدت أنّ الحبّ سيغمرها، لكنّها بعد ثلاث سنوات ما زالت تشعر كأنّها تحتضن طفل امرأةٍ أخرى. «لطالما كنت متوتّرة بعض الشيء في الحياة، وقلقة، لكنّ الأمومة ضاعفت هذا الإحساس، واتّخذ أبعادًا جنونية، إضافةً إلى الحدّة. لم أعد أنا. ولم أعد سعيدة».

بعد ولادة ابنها، ولأكثر من عام، غرقت في اكتئاب ما بعد الولادة الذي تمّ تشخيصه بعد تسعة أشهر. بمجرّد إجراء التشخيص، شعرت

أمبر بالارتياح وتعافت بسرعة كبيرة. ثمّ أظهر الاكتئاب الذي لا رجوع عنه وجهه الحقيقي وتحوّل إلى ندم.

«من خلال ولادتي لابني، أنجبت نفسي عندما كنت طفلة». كان اكتئاب ما بعد الولادة بمثابة نتيجة عكسية لطفولتها. عندما أصبحت أمبر أمًّا، فهمت أنّ طفولتها لم تكن وردية كما تتذكّرها. «كان والداي تقليديَّين للغاية، صارمَين، ولطالما رأيت نفسي بيدقًا على الخريطة، كنت ملكًا لوالديّ.

في كيبيك، تستمرّ إجازة الأمومة لمدّة عام. إنّها فترة طويلة جدًا بالنسبة إلى امرأة نشطة مثلي. كنت لا أزال أنتظر رابط التعلّق هذا بابني لكنّه لم يتشكّل. وكان طفلي يعاني مشاكل صحّية وآلامًا شديدة في البطن. ونُقل إلى المستشفى عندما كان له من العمر ثلاثة أشهر لأنّه كان يعاني حساسية على بروتينات حليب البقر التي نقلتها إليه من خلال الرضاعة الطبيعية».

كانت أمبر تعيسة للغاية. هي، التي حلمت منذ ولادة طفلها الصغير بالرحيل، وترك كلّ شيء من دون رجعة، وجدت نفسها في النهاية مربوطة إلى سرير ابنها. «كان شعوري بالذنب لا يقاس. شعرت بالمسؤولية عن ألمه. أرضعته لمدّة خمسة أشهر، وعانى الأمرّين.

كبر الطفل وبات الآن قادرًا على الذهاب إلى الحضانة. وأنقذت عودتي إلى العمل حياتي. لكنّ جائحة كوفيد حلّت. ووجدت نفسي في المنزل أعتني بابني وحدي بينما كان شريكي يعمل».

تميّزُ آمبر بين الكآبة النفاسية واكتئاب ما بعد الولادة والندم على الأمومة، إلّا أنّ الحالة الأخيرة فقط هي التي لا رجعة فيها.

اتّصلتُ بجمعية كآبة الأمّـهات Maman Blues التي رصدتها أثناء قراءة مقال. وودِدت أن أفهم الفروق الدقيقة بين هذه المشاعر

المتعلّقة بالأمومة، لأنّ الأمّهات هنّ أوّل من يحاول تحليل هذه الحالات السلبية المختلفة التي يعانينها بعد ولادة أطفالهنّ. أخبرهنّ المجتمع مرارًا وتكرارًا أنّ وصوله حدث رائع لدرجة أنّهنّ عندما لا يشاركن هذه الحماسة، يشعرن بالقلق حيال ذلك، وبالذنب من دون أن يكنّ قادرات على التحدّث عنه، بدافع الخجل. شرحت لي إليزا، إحدى العضوات، أنّ الجمعية موجودة لاستقبال الأمّهات، ودعمهنّ، والاستماع إليهنّ، وتقديم المشورة لهنّ، وإرشادهنّ إذا لزم الأمر. وتُعقد أيضًا مجموعات المناقشة بانتظام. للجمعية فروع عدّة في فرنسا.

تصيب الكآبة النفاسية ما بين 50 في المئة إلى 80 في المئة من النساء اللواتي أنجبن، بعد ثلاثة أيّام من الولادة في المتوسّط. وتنتج هذه «العاصفة» الهرمونية والعاطفية والوجودية عن التعب وانخفاض البروجستين – هرمونات الحمل – والاضطراب النفسي. بعد عشرة أيّام من الكآبة النفاسية، نتحدّث بالأحرى عن اكتئاب ما بعد الولادة المبكر، الذي تشعر به 15 في المئة من الأمّهات الحديثات العهد في العام التالي.

أوضحت لي إليزا أنّه في كلّ عام، مئات الأمّهات يعانين من هذيان لبضعة أيّام أو بضعة أسابيع بعد ولادة أطفالهنّ. وتعاني الأمّهات هلوسات سمعية، فيسمعن بكاء أطفالهنّ قبل استيقاظهم، ويتخيّل بعضهنّ أنّهنّ قادرات على قراءة أفكار الآخرين، أو يعتقدن أنّ طفلهنّ مات أو أنّه قيل لهنّ إنّه جرى استبداله في جناح الولادة أو أنّه ابن الله أو ابن الشيطان. في أسوأ الحالات، قد يصل الهذيان إلى ذروته بقتل الطفل أو الانتحار. وغالبًا ما تكون هؤلاء النساء غير قادرات على الوثوق بمن حولهنّ. هذا النوع من الهذيان هو أهمّ مظاهر ما يُسمّى ذهان ما بعد الولادة، وهو متلازمةٌ غالبًا ما يجهلها عامّة الناس.

تعاني امرأتان تقريبًا من بين كلّ ألف امرأة هذا النوع الحادّ والمروّع وغير المعروف من اكتئاب ما بعد الولادة. تغرق أولئك النساء في القلق والشعور بالذنب لأنّهنّ غير قادرات على استيعاب مفهوم الولادة، ويشعرن بالعجز عن رعاية أطفالهنّ بطريقة صحيحة.

يسهل على المرء أكثر أن يعترف بالاكتئاب لمن حوله، فهو مفهوم أكثر تقنيّةً وقبولًا من الناحية الاجتماعية. وتعرف إليزا مثل أمبر بالضبط ما تتحدّث عنه لأنّها عانت كآبة نفاسية مروّعة عند ولادة طفلها الثالث. ودخلت مستشفى الأمراض النفسية في وحدة الأمّ والطفل لمدّة شهر ونصف. اليوم، بات هذا الأمر من الماضي، لكنّها التزمت بالعمل في الجمعية لتُعْلم الأمّهات اللاتي يطلبن خدماتها ومهاراتها أنّهنّ لسن وحدهنّ.

عندما بدأت بالحديث عن الندم على الأمومة، أوقفتني إليزا وأخبرتني أنّ الأمر لا علاقة له بذلك. خلال خمس سنوات من الوساطة في مجموعات الدعم، التقت بعشرات الأمّهات اللواتي كنّ يشعرن بوضوح بهذا الشعور الذي لا يقارَن باكتئاب ما بعد الولادة وحالات الكآبة النفاسية المؤقتة في حياة الأمّ، التي يمكن معالجتها.

الندم على الأمومة أمر لا يوصف ولا يُذكر في مجتمع يتعارض فيه هذا الشعور مع أسس تنظيم المجتمعات البشرية. ويتطلّب الأمر قدرًا كبيرًا من الوعي الذاتي والشجاعة للتعرّف إليه، والاعتراف به، والأكثر من ذلك، لإخبار الآخرين به.

قالت لي أمبر بهدوء شديد: «إنّني نادمةٌ بشدّةٍ على إنجاب هذا الطفل. ليس لديّ أيّ عائلة في كيبيك ولا يمكنني التحدّث مع أيّ شخصٍ في هذا الموضوع. تُوفّيت والدتي قبل عشر سنوات، وأخي وأختي لا يفهمان شيئًا، ولا يمكنني حتى مفاتحة أبي بالموضوع. لكنّني

اليوم أفضّل أن أمنح ابني أمًّا في صحّةٍ جيّدةٍ بدلًا من أخ أو أخت. إذا رُزقت بطفل ثانٍ الآن، فسأنتحر.

حاولت أن أتذكّر طفولتي، لمعرفة ما إن كان بإمكاني العثور على أسباب عدم ارتياحي. عندما كنت طفلة، أكثر ما عانيته كان قلّة الحنان. لا أتذكّر أنّ والديّ قالا لي: «أحبّك». لم يكن لدى والدتي أيّ فكرة عن ذوقي والألوان التي أحبّها وشغفي بالتصوير الفوتوغرافي. نشأت وأنا أعاني نقصًا شديدًا من الثقة بالنفس. ولو سألني أحدهم ما هو أكبر حلم في حياتي، لأجبت بأنّني لا أعرف. أخاف إحباط الآخرين لدرجة أنّني لست سوى ظلّ لنفسي. لقد سلبتني الأمومة متعة الحياة.

أشعر بالعجز، وينتابني شعور دائم بالفشل يجعلني أرغب في الاستسلام والهرب. لهذا السبب أشعر بأنّ توصيل طفلي إلى الحضانة ينقذ حياتي. وأجد من المروّع أن أقول في نفسي إنّني كلّما أمضيت معه وقتًا أقلّ، ازداد ارتياحي. إلّا أنّ هذا حقًّا ما أعيشه الآن. ولا أعلم متى ستتحسّن الأمور، والأسوأ من ذلك، أجهل ما إن كانت ستتحسّن. لا أعلم ما إن كانت الأزمةُ الحاليةُ هي التي تضخّم هذا الشعور بالعجز المطلق. أرى مرور الوقت، والأيّام المتشابهة تنصرم».

تجد أمبر الدعم الذي يمكن أن تجده من حولها، في مجتمعها الافتراضي، المساحة الوحيدة التي يمكنها التحدّث فيها بحرّية عن ندمها.

وتشعر أمبر كأنّها عبدة لدورها كأمّ. «لم أعد موجودة كامرأة أو كزوجة. أصبحت مجرّد أمّ». كان حجر عام 2020 بمثابة عامل كاشف. وقد اختبرته كعقاب، كعودة إلى إجازة أمومة قسرية، وحدها معه، فضلًا عن كلّ العبء الذهني الذي تنطوي عليه الحياة الأسرية، مضاعفًا 100 مرّة بمجرّد أن يصبح المرء والدًا.

في العامَين الماضيَين، بكيت كثيرًا. في داخلي غضب لا ينطفئ. وذلك الوضوح المفاجئ، بعد فوات الأوان، فيما لا أستطيع العودة إلى الوراء. لا أحبّ المرأة التي أصبحتها. أجل، أنا الشخص ذاته كما كنت من قبل، لكن مع المزيد من المشاكل. ما عدت أعرف نفسي من الناحية الذهنية».

اليوم، تقول أمبر إنّها تعرف معنى كلمة «التضحية» العميق: فهي لم تتصوّر ما قد يعنيه أن تصبح أمًّا. أصبحت الأمومة تحدّيًا وتناقضًا في نظرها. هي عاجزة عن نسيان ما كانت عليه من قبل، وتشعر اليوم بأنّها مدينة بكلّ شيء لطفلها بينما كانت قبل ولادته تريد كلّ شيء. بمجرّد أن يختار المرء الإنجاب، يبدأ بالتحدّث عن الواجبات أكثر من العطايا. من هبة الحياة في الأمس، انتقلنا إلى دَين لانهائي تجاه ذلك الذي لا يفرضه علينا الله ولا الطبيعة بعد الآن والذي سيذكّرك ذات يوم بأنّه لم يطلب أن يولد...

أعقبت المسؤوليات والواجبات إتقان استعمال وسائل منع الحمل. بمعنى آخر، الطفل الذي يمثّل مصدر إشباع لا يمكن إنكاره بالنسبة إلى البعض قد يكون مصدر ندم للأخريات. قليلات هنّ النساء وقلائل هم الأزواج الذين، عند اتّخاذ قرار الإنجاب، يقومون بكلّ وعي باحتساب الملذّات، والآلام، والفوائد، والتضحيات. فالأمومة غارقة دائمًا في هالة من السعادة تحجب الواقع.

من الناحية الاجتماعية، توضح أورنا دوناث أنّه في مجتمعنا الرأسمالي النيوليبرالي القائم على عقيدة التقدّم، يمكن اعتبار الندم دليلًا على خلل وظيفي. نظرًا إلى أنّ كلّ ما نقوم به يهدف إلى التغلّب على تحدّيات الحياة، يُعدّ الندم انتهاكًا. وما إن يعترف المرء بأنّه يشعر بالندم فهذا دليل على الافتقار إلى البراغماتية والتفاؤل. وقد يقود هذا

الشعور الأفراد والجماعات إلى جلد أنفسهم وإلى الشعور بعجز يشلّهم لدرجة أنّهم أحيانًا يصبحون مهووسين بماضٍ لا يمكنهم العودة إليه.

جميع الأمّهات اللاتي قابلتهنّ قلن لي الشيء ذاته. «لو كان بإمكاني فقط أن أمحو كلّ شيء»، أو «أودّ أن أرحل بدون النظر إلى الوراء»، أو حتى «أحلم أنّهم اختفوا». يتخيّل بعضهنّ أنّ أطفالهنّ تبخّروا. قالت لي سيلفي: «وششش، فجأة يختفى الأولاد، وكأنّني لم أنجب قطّ!» أو، أمبر التي تتمنّى لو أنّها تمتلك عصًا سحرية لمحو الندم. لكنّها تضيف أنّها لو كانت «أمًّا سيّئة» لما كانت اكترثت بالندم على أمومتها. هذه الفكرة تثير اهتمامي، وأجدها صحيحة للغاية! أرادت جميع أولئك النساء فهم الشعور بالضيق الذي أصابهنّ منذ ولادة أطفالهنّ، وتأمّلن غالبًا ما كان مؤلمًا في الماضي والحاضر لترويض هذا الندم بنحو أفضل، هذا أمرٌ مؤكّد.

وتعترف سيلفي بأنّ شياطينها القديمة قد استحوذت عليها. وترى نفسها شبيهةً بوالدتها: غير مستقرّة، ومتقلّبة، يلتهمها فيروس السفر. ذهبت إلى اليابان أخيرًا لمدّة عشرة أيّام. وتردّدت في العودة. «لماذا يقبل المجتمع هذا النوع من الأمور بسهولة أكبر لو كنت أبًا ممّا لو كنت أمًّا؟ عندما تكونين أمًّا، لا يمكنك التخلي عن عائلتك وإلّا تعرّضت لوصمة العار حتى آخر يوم من حياتك».

وتلاحظ بمرارة: «كثيرون هم الرجال الذين لا يكلّفون أنفسهم عناء تحمّل هذا النوع من الذنب ويتابعون حياتهم المهنية معتمدين على تفاني الأمّ «الطبيعي» أو يهجرون المنزل العائلي جذريًا».

لديّ حكاية ذات مغزى في ما يتعلق بهذا الموضوع. خلال مأدبة غداء لطيفة يوم الأحد مع ماري وإيريك، وهما صديقان موسيقيان، بدأت بالحديث عن موضوع كتابي. بدافع الفضول، انهالت ماري عليّ بالأسئلة

وها هو إريك يقول فجأة، هو الذي عادة ما يكون متحفّظًا ومتواضعًا: «أنا أيضًا نادم على إنجاب الأطفال». وأوضح لي أنّ ندمه يأتي من واقع أنّه لم يهتمّ بهم الاهتمام الكافي، وأنّه لم يكن موجودًا عندما احتاجوا إليه. هم يلومونه على ذلك، وهو يلوم نفسه. لم يكن هذا الدور مناسبًا له في النهاية، وما كان يجب أن يكون أبًا. تأثّرت بوعيه، الذي يبدو أنّه يحزنه بصدق، لكنّني أفهم أيضًا أنّه، بصفته عازف بوق موهوبًا، اختار أن يقوم بسلسلة من الجولات بدلًا من أن «يؤدّي» دوره كأب. كان هذا خياره، وهو خيار لا يُتاح للنساء.

على الرغم من أنّ الانفصال الجسدي لا يجعل وعي الأمّ يختفي، لأنّ الرابط موجود وإن لم تعش الأمّ والطفل تحت سقف واحد، توضح أورنا دوناث أنّ سخرية هذه المواقف هي أنّه من خلال تحقيق ما تعتبره المرأة عملًا نبيلًا، وهو أن تكون أمًّا صالحة، أن تعترف بأنّها لا تستطيع أن تكون أمًّا وأنّ الأب سيكون أكثر ملاءمة وأنّ الجوّ في المنزل سيكون أكثر هدوءًا بدونها، فتلك المرأة تجعل من نفسها مذنبة بفعلٍ يعتبره المجتمع سلوكًا غير لائق.

يجب على الأمّ أن تبقى مع أولادها مهما كان الثمن. إنّها ضحيّة الإملاءات الاجتماعية التي تفرض على الأمّ العيش تحت سقف واحد مع أطفالها وعدم مغادرة منزل الأسرة أبدًا، مهما كانت الظروف والصعوبات التي تواجهها، والضيق الذي قد تتعرّض له، حتى لو اعترفت المرأة بأنّها لا تستطيع أو لا تريد أن تكون مسؤولة عن أطفالها. وترى أمّهات أخريات أنّ الشعور بالذنب كبير للغاية وأنّه يتنافى تمامًا مع تعريف «الأمّ الصالحة» ويستبعده فورًا، لذلك يعجزن عن الرحيل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

.10

فيكتوريا،
الكلمة المحرّرة

خلال هذا الاستكشاف، تساءلتُ عمّا يمكن أن يشعر به أطفال أولئك الأمّهات. هل لديهم حدس بأنّ والدتهم نادمة على هذا الدور؟ هل يتبيّنون في مواقفها وفي حياتهم اليومية أدلّة من شأنها أن تقودهم إلى هذا الاستنتاج؟

تحدّثت فيكتوريا عن ذلك مع ابنتها مورغان التي بلغت لتوّها السابعة عشرة من العمر. هذه الأميركية البالغة من العمر 52 عامًا، وهي في الأصل من لويزيانا، كتبت مقالةً على موقع إلكتروني للأمّهات، كشفت فيه تحت هويّتها الحقيقية عن استيائها لأنّها أصبحت أمًّا. كانت هذه فرصة، قبل أن تنشر المقالة، لخوض مناقشة صريحة مع ابنتها التي تكاد تصبح بالغة، وسرعان ما ستصبح في سنّ تسمح لها بأن تنجب الأطفال بدورها. كان لهذه المقالة صدًى كبيرٌ على مواقع التواصل الاجتماعي وتناولته صحيفة الغارديان The Guardian (الولايات المتّحدة الأميركية) في عام 2017.

شرحت فيكتوريا لابنتها بكلمات بسيطة أنّ دورها كأمّ لا يناسبها، لم يناسبها يومًا ولن يناسبها أبدًا. وأصرّت على الفور على أنّ ابنتها لا علاقة لها بالأمر وأنّها لم تستأ من وجودها في أيّ وقت من الأوقات.

تتذكّر فيكتوريا أنّ الحديث كان قصيرًا جدًا، عندما طلبتُ منها التفاصيل عبر الهاتف. في البداية، تلقّت ابنتها الخبر بنحو سيّئ للغاية. لم تقل كلمة واحدة. وغضبت كثيرًا، إذ إنّها خلطت بين الندم والهجران. «ظنّت مورغان في البداية أنّني سأتخلّى عنها كما فعل والدها البيولوجي عندما كانت في الثالثة من عمرها. انقطع عنّا كلّيًا لأنّني تركته. كان عنيفًا ومسيئًا. لكن ما كنت لأتخلّى عنها أبدًا. فإنّ تاريخنا بأكمله يثبت العكس».

بعد بضعة أشهر من هذا الحديث، الذي وصفته فيكتوريا بـ«التأسيسي» في علاقتها مع ابنتها، عادت مورغان إلى والدتها وأخبرتها أنّها تتفهّمها، فقد استطاعت أن تفصل بين الندم الذي شعرت به والدتها والحبّ الذي تكنّه لها وهي لا تشكّ فيه إطلاقًا. فيكتوريا أمّ مشجّعة ومهتمّة على الرغم من آلام الحياة وعدم استقرارها، وقد حرصت دائمًا على ألّا ينقص ابنتها شيء، ولم تقصّر تجاهها أبدًا.

«أنا متأكّدة من أنّ العديد من الآباء، خلال حياتهم، يعجزون أحيانًا عن إعالة أطفالهم؛ وعلى الرغم من كلّ شيء، لا يندمون على إنجابهم. أنا أشعر بأنّ هذه الأمومة خطأ فادح. مع ذلك، أنا أحبّ ابنتي وهي تعرف ذلك. فلو حدث لها أيّ مكروه، لما وجدت عزاءً بأيّ شيء، ولتمنّيت الموت».

تشعر فيكتوريا بذنب شديد من ناحية لشعورها بهذا الندم، ومن ناحية أخرى لعدم إعطاء ابنتها ما تستحقه، لأنّ ابنتها، الجميلة كالنهار المشرق، والمضحكة، والذكيّة، والمرحة، ليست في أيّ حال من الأحوال

مسؤولة عمّا تعانيه والدتها. «تحدّثنا أنا ومورغان كثيرًا في ذلك الوقت. أردتها أن تعرفني جيّدًا».

وُلدت فيكتوريا في عائلة من لويزيانا، ومنذ عيد ميلادها السادس عشر، أراد والداها أن تتزوّج في أبكر سنّ ممكنة، كما فعلا. لذلك، عندما كان والدها العسكري يعود من مهمّة، كان ينظّم عشاءً في المنزل يدعو إليه أصغر زملائه، لتعريفهم إلى فيكتوريا على أمل أن تقرّر ابنتهم أن تختار «زوجًا صالحًا». لكنّ فيكتوريا لم تكن على استعداد لذلك، إذ كانت ترغب في الالتحاق بالجامعة والحصول على وظيفة.

لم يرق خيارها لهذه الحياة والديها. وكانت تعلن بكلّ طريقة ممكنة أنّها لن تنجب الأطفال. وبقي والداها يكرّران لها: «سترين، سوف تغيّرين رأيك. إنّها أفضل وظيفة في العالم»، إذ إنّ فكرة عدم إنجابها الأطفال أرعبتهما.

استمرّت محنة فيكتوريا كلما عاد والدها لأسابيع طويلة إلى عمله، لأنّ والدتها كانت، بمجرد مغادرته، تخلع قناعها المبتسم وتبدّل مواقفها اللطيفة تجاه أطفالها لتظهر ما كانت عليه في أعماقها، أمّ مسيئة، ومهملة، وباردة، وصارمة.

تزوّجت فيكتوريا عندما كانت في الثلاثين من عمرها. ويمكن القول إنّها كانت عانسًا في نظر والديها. «تمنّيت أن أُرزق بابنتي من كلّ قلبي. كنت سعيدة بإنجاب طفل، لكنّ زوجي كان فظيعًا طوال فترة حملي. كنت أعلم أنّ هذه القصّة ستنتهي بنحو سيّئ. عملية الولادة كانت جيّدة وخلت من المشاكل. لكن على الرغم من ذلك، سرعان ما ندمت على إنجاب هذه الطفلة، ولم أتمكّن من حملها بين ذراعَيّ في اليوم التالي من ولادتها.

في تلك اللحظة، علمت أنّني ارتكبت أكبر خطأ في حياتي. فهمت أنّ هذا الطفل كان لي وأنّه لا يمكنني الرجوع في الزمن. أصبح الإدراك أنّ هذه الحال ستستمرّ طوال الحياة أمرًا مذهلًا ومروّعًا. لم أرغب في أن تعيش تلك الطفلة ما عشته أنا، إذ كانت تجربة علاقتي بوالدتي حزينة ومؤلمة للغاية لدرجة أنّني لم أستطع فرضها على أيّ شخص آخر. شعرت بأنّني عاجزة عن أن أكون أمًّا. على كلّ حال، لم ترغب أمّي فيّ يومًا، وجاهرتني بالأمر ذات يوم، ولم تأخذني يومًا بين ذراعيها ولم تقل لي قطّ إنّها تحبّني.

لكن ابنتي تجد، على العكس، أنّني أمّ رائعة، وأصدقاؤها أيضًا. لديّ سمة «الوالدة الصديقة»، لكنّني لست صديقتها، أنا والدتها. في المنزل قواعد، وهي تحترمها في معظم الأحيان. لديها مسؤوليات، وتديرها بطريقة جيّدة. لا علاقة لها مع والدها البيولوجي أو عائلته – هذا خيارهم – وسألت زوجي عمّا إن كان يرغب في تبنّيها. وهذا ما فعله قبل ثماني سنوات. إنّها قريبة منه كما هي منّي. حاولت خلق جوّ من الحبّ والصفاء في المنزل، وأعتقد أنّني نجحت في تحقيق ذلك.

بذلت قصارى جهدي حتى لا تشعر بندمي على إنجابها وعلى كوني أمًّا. كانت مرغوبًا فيها. وقد طلبت منّي أحيانًا أن أكون أكثر ملاطفة، وحنانًا، و«أمومة»... لكنّني لست ذلك الشخص. وعدم قدرتي على ذلك هو قصورٌ عنيف للغاية ومصدر للذنب بالنسبة إليّ. لكنّني لا أحبّ أن أكون والدة. لا أستطيع أن أفسّر ذلك. إنّه واقع الأمر».

رأت فيكتوريا من الضروري أن تعرف ابنتها الحقيقة وأن تعرف، قبل كلّ شيء، أنّها تحبّها على طريقتها الخاصّة. تقوم جيوليا بالعملية نفسها وتكتب لابنتها جيما منذ ولادتها لتترك أثرًا لكلّ ما حدث كي لا تنسى أيّ شيء من حالاتها المزاجية، وما تشعر به تجاه ابنتها... قد

لا تعطيها هذه الاعترافات أبدًا، لكنّها تريدها أن تكون موجودة. وهي تساعدها أيضًا على تحمّل هذا الشعور غير المشروع بالندم.

استطاعت سيلفي، وكلارا، وأمبر مفاتحة آباء أطفالهنّ بالأمر وهم فهموا إلى حدّ ما المعاناة التي يختبرنها. كانت القدرة على مشاركة هذا الشعور معهم منقذة للحياة. وبغية دعمهنّ، وهم شبه عاجزين، كانوا أكثر حضورًا في المنزل وساعدوا في الأعمال المنزلية.

جان، زوج كلارا، يرافقها بقدر الإمكان حيال ما تسمّيه «درب صليبها»، محاولًا أن يجعل حياتها أسهل. كما أنّها تحاول إعادة الاتّصال بحبّها الأوّل: الرسم. لكن سرعان ما يدركها واقع الحياة اليومية. فالإبداع والأمومة لا يتماشيان جيّدًا، لأنّ وقت التركيز عندما ترغب في الإبداع في المنزل، محدود جدًّا. بين العمل من الساعة الثامنة إلى الخامسة مساءً، والأطفال، والواجبات المنزلية، والتخطيط لليوم التالي، وجداول الأطفال الثلاثة ووجبات الطعام، تتقلّص أنشطة الأمّ الترفيهية. تحبس كلارا نفسها في غرفتها. «بالكاد أتمكّن من الرسم لثلاثين دقيقة وأسمع الصراخ والصياح في المنزل. أحاول أن أنغلق على نفسي في فقاعاتي، لكنّها تنفجر دائمًا في وقت مبكر جدًّا، عندما يطلب منّي أحد الأطفال أو زوجي التدخّل لحلّ المشكلة أو الجدال».

ناقشت جيوليا الأمر مع زوجها ووالد طفلها، باستيان، الذي لم يفهم ما كانت تتحدّث عنه زوجته عندما قالت: «ندمت على أنّني أصبحت أمًّا. أنا نادمة على الأمومة». حتى اليوم الذي انتهى بها الأمر بالقول: «عزيزي، هذا الطفل، صنعته من أجلك».

«وبعد ذلك ذهبت لزيارة أمّي لمعرفة ما إن كانت اختبرت أيضًا ما أعانيه. بكت كثيرًا وقالت لي في نفس واحد: والدك هو من أراد الأطفال. الآن وقد عرفتِ، لا تتحدّثي عن الأمر. يجب عدم إزعاج الآخرين

بالموضوع. كنت أكثر غضبًا من جميع النساء المحيطات بي ومن نفسي لأنّني آمنت بأسطورة سعادة الأمومة.

والد جيوليا، الذي كان يتابع المحادثة من بعيد، قال فقط: «لكنّ الأمومة أمر طبيعي»... وانتهى النقاش.

«لم يرغب والداي في فهم أنّني لم أكن بخير إطلاقًا. لقد عانيت بشدّة بسبب هذا النقص في التعاطف من حولي. وأشعر بأنّني مرضت طوال أشهر عدّة، في محاولة معرفة ما يصيبني. أقرأ كلّ ما يقع في متناول يدي ويشبه ما كنت أعانيه، حتى أضع الكلمات عليه وأصوغ ما لا يمكن تصوّره: أنا نادمة على الإنجاب. ومنذ ذلك الحين، يبدو الأمر كما لو أنّني شخّصت المرض. المرض خطير وعضال. وسيرافقني طوال حياتي.

كثيرًا ما أفكّر في فيلم ماتريكس. في الحبّتَين الزرقاء والحمراء. بدون تردّد، سأقبل الحبّة التي ستعيد الزمن إلى الوراء. ولن أُرزق بالأطفال».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الخاتمة

إلسي، وكلارا، وكولين، وجيوليا، وفيكتوريا، وسيلفي، ولونا، وأمبر... والأمّهات الأخريات اللواتي لم أذكرْهنّ في الكتاب لكنّهنّ ساعدنني في تحقيقي، سمحن لي بالكشف عن الفروق الدقيقة في موضوع الندم على الأمومة، المعقّد والممنوع الحديث عنه. هذا الجزء من الروح البشرية الذي كان غريبًا تمامًا عنّي، ومجهولًا في فرنسا، جعلني بطريقة ما أرتدي ملابس عالم آثار يعالج منطقة تنقيب جديدة، ويتأرجح بين خوفه ممّا قد يكتشفه واحترامه للأماكن التي يعمل فيها.

خلال هذه اللقاءات مع أولئك الأمّهات، كان عليّ ترويض الموضوع وترويض المشاعر التي قد تخالجني أحيانًا. وقد دفعني ذلك إلى أقصى الحدود وأجبرني على زعزعة اليقين الراسخ في ذهني.

خلال استماعي إليهنّ، حاولت أن أفهم جوانب الندم على الأمومة المختلفة. وآمل أن أكون تجنّبت التمركز حول الأمّ، حتى لو كانت تجربتي كأمّ قد شوّشت قدرتي على الاستماع في بعض الأحيان. لا تزال أسئلة عديدة ربّما طرحتها على نفسي أثناء التحقيق، بدون إجابة. وكما

أعلنت في بداية الكتاب، فأنا لست بالمتخصّصة، ولذلك امتنعت عن إبداء نظريات مبنيّة على الشهادات التي جمعتها.

لكنّني اكتسبت من هذه الشهادات يقينًا. ينشأ الندم من ضغط اجتماعي يجبر كلّ امرأة على أن ترغب في أن تصبح أمًّا، وأن تكون أمًّا صالحة إن أمكن، وتجربة كلّ واحدة منهنّ تحدّد علاقتها بالأمومة.

سلّطت عالمة الاجتماع أورنا دونات الضوء على الندم من خلال دراستها، وسيتبعها آخرون ويتعمّقون أكثر فأكثر في هذا المجال، كما يمكن للتخصّصات كعلم النفس أو الفلسفة أن تهتم هي أيضًا بهذا الموضوع.

كان هذا الكتاب أيضًا بحثًا عائليًا مقرّبًا. تمكّنت من خلاله من إلقاء نظرة مختلفة على حياة جدّتي في ضوء شهادات الحاضر. فقد بقيت حرّة طوال حياتها، وحقّقت المصير الذي اختارته على طريقتها الخاصّة متجاهلة التقاليد الاجتماعية ونظرة الآخرين إليها.

في نهاية هذا الكتاب، ما زلت أجهل ما إن كانت جدّتي فون ندمت على كونها أمًّا أم لا. وحدها هي كان بإمكانها أن تخبرني بالأمر بكلماتها الخاصّة. لكنّ هذا الأمر غير مهمّ، غير أنّ هناك أمرًا واحدًا مؤكّدًا، وهو أنّ ازدواجية الأمومة، التي يشكّل الإحساس بالندم ذروتها، لطالما كانت، وستظلّ، موجودة. إلّا أنّ نظرة المجتمع إليها هي التي تتغيّر.

في أيّامنا هذه، لا يزال الإفصاح عنه، كما الاستماع إلى الحديث عنه، غير ممكنين، فالأمّ النادمة محكوم عليها بأن تحمل عبئها بصمت مدى الحياة. والطريقة الوحيدة التي تسمح لها بأن تتعايش معه هي أن تتحدّث عنه مع من حولها، إلى الأشخاص المختصّين، وإلى عائلتها، وأصدقائها، والخطوة الأخيرة، إذا وجدت ذلك مناسبًا، أن تتحدّث عنه مع أولادها عندما يكونوا قد بلغوا سنًّا تسمح لهم بفهم هذا الأمر. إنّ

الإفصاح عن الأمر يسمح أيضًا للمرأة بأن تطرح على نفسها الأسئلة الصحيحة قبل اتّخاذ قرار الإنجاب أو عدم الإنجاب، والنظر في رغبتها فيه وقياس مدى الالتزام الذي يفرضه. البوح والإفصاح عن هذا الندم واهتمام المجتمع به سوف يخلق الوعي، إذ يُدخل الندم إلى مجموعة العواطف المرتبطة بالأمومة.

وبقدر ما قد يبدو ذلك غريبًا، فإنّ اهتمام أولئك النساء بشعور الندم الذي يجتاحهنّ هو بالضبط ما يجعلهنّ متفانيات في أداء دورهنّ كأمّهات.

المراجع

Eliette Abécassis, *Un heureux événement*, Albin Michel, 2005.

Luis Alvarez et Bernard Golse, *La Psychiatrie du bébé*, Que sais-je ?, PUF, 2020.

Élisabeth Badinter, *Le Conflit, La femme et la mère*, Le Livre de poche, 2011.

Élisabeth Badinter, *L'Amour en plus, Histoire de l'amour maternel*, XVII^e^-XX^e^ siècle, Flammarion, 1980. Nouvelle édition 2010.

Simone de Beauvoir, *Le Deuxième Sexe*, Folio, 1986. Monique Bydlowski, *La Dette de vie*, Itinéraire psychanalytique de la maternité, PUF, 2008.

Orna Donath, *Le Regret d'être mère*, Odile Jacob, 2019.

Carole Fives, *Tenir jusqu'à l'aube*, Gallimard, 2018.

Françoise Héritier, *Masculin/féminin*, La pensée de la différence, Odile Jacob, 2002.

Françoise Héritier, *Les deux sœurs et leur mère*, Anthropologie de l'inceste, Odile Jacob, 1994.

Yvonne Knibiehler, *Histoire des mères et de la maternité en Occident*, Que sais-je ?, PUF, 2017.

Aldo Naouri, *Les Filles et leurs mères*, Odile Jacob, 1998.

Daniel Pennac, *La Fée carabine*, Gallimard, 1987. Donald W. Winnicott, *Jeu et réalité, L'espace potentiel*, Folio, 2002.

Donald W. Winnicott, *La Mère suffisamment bonne*, Payot, 2006.

الشكر والتقدير

أودّ أوّلًا أن أشكر شارلوت روسو التي لولاها لما ألّفت هذا الكتاب. فقد شجّعتني بحماسة وبراعة طوال فترة الكتابة.

وأورنا دوناث، على أحاديثنا وعملها.

شكرًا جزيلًا أيضًا لصديقاتي الوفيّات الطبيبة النفسية والمحلّلة النفسية أديل أسوس، وسيلين كازاغراندي، اللتين استمعتا إلى حديثي عن الندم على الأمومة، وأعادتا قراءة الشهادات معي في ضوء اختصاصهما. وشكرًا لبرنارد غولس الذي لم يتردّد في مشاركة تجربته كطبيب نفسي للأطفال ومراجعه.

وفاليري غينون، لتصحيحها الدقيق ونصائحها الجيّدة دائمًا. وصديقاتي، أريان من بروكسل، وسيسيل من تاهيتي، وجولييت من باريس وكارو من سكوتو. وصونيا كرونلوند، لإخلاصها وروح العمل في الفريق التي تتمتّع بها.

وليلا، ابنتي التي تجعلني أنمو وأبكي وأضحك في آن واحد. ووالدتي وأختي فلورانس وعائلتيّ الفرنسية والهولندية اللتين تمثّلان مصدر إلهام لي. ووالدي وجدّتي توم بالطبع. وفابريس، الصريح والصادق.

وإضافة إلى كلّ شيء، أشكر من صميم قلبي جميع الأمّهات اللواتي كنّ على استعداد لأن يثقن بي وجعلنني أكتشف هذا الجزء من الأمومة الذي لم أشتبه في وجوده.

شكر وتقدير للمحرّرة

أشكر بصدق فيرونيك كاردي لأنّها أتاحت لي إعداد هذا الكتاب في دار النشر JC Lattès.

وأشكر جميع الأشخاص الذين تحدّثت إليهم، مرارًا وتكرارًا، عن هذا الموضوع الذي اجتذبني لسنوات عديدة، واستمعوا إليّ باهتمام، (آمل ذلك)، وصبر، وشجّعوني على أن أبدأ هذا الكتاب وأن أكمله. أفكّر فيك بشكل خاصّ، يا بيير.

وأشكر طفليّ الصغيرين، تشارلي وليو، اللذين يدفعانني دائمًا إلى المضيّ قدمًا لتحقيق أحلامي ولأن أكون أكثر الأمّهات انفتاحًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الندم على الأمومة - الندم... التابو الأعظم حين يتعلّق بقضيّة مثل الأمومة في مجتمع يقدّسها ولا يربطها إلّا بما هو إيجابي في الحياة، من عطاء غير محدود إلى رعاية وحبّ غير مشروطين.
للمرّة الأولى، تتجرّأ عشر نساء على الحديث عن جوانب مظلمة في دورهنّ كأمّهات. يسردن في هذا الكتاب قصصهنّ، تلك التي خضنها مع أطفال أنجبنهم، والأخرى التي ربطتهنّ بأمّهاتهنّ فأسّست لكلّ ما سيأتي، إذ شكّلت مشاعرهنّ وصنعت الإنسان الذي هي عليه كلٌّ منهنّ، المرأة، والأمّ التي فيهنّ...

ستيفاني توماس - منتجة ومخرجة تلفزيون وراديو، أنتجت العديد من التقارير لقناة France Inter، والأفلام الوثائقية الاجتماعية والتاريخية لقناة France Culture، فضلًا عن عملها مع بيير شاسانيو على أفلام وثائقية لقناة France 5.

«الكتاب الأوّل الذي يبحث في شعور الندم على الإنجاب.
عشر شهادات من نساء يساعدننا على فهم موضوع، رغم جاذبيّته، لم يسبق أن تجرّأ أحد على الحديث عنه».
Radio France

«نبشت ستيفاني توماس في أعماق العلاقات الحميمة، وبحثت في الزوايا المظلمة للأمومة، فقلبت الدنيا رأسًا على عقب بكتاب فريد من نوعه يلقي الضوء على إحساس مزعج لكن أكثر شيوعًا ممّا نتوقّع».
Femme Actuelle

«عشر شهادات ثمينة وفريدة تمزج فيها الصحافية تساؤلات متعلّقة بحياة المرأة، والأمّ، والفتاة».
Le Monde

ISBN 978-614-060-008-9
9 786140 600089

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان